رواية

فتحي سليمان

شاي باللبن في الزمالك

ساحر الكتب للنشر والتوزيع

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

شاي باللبن في الزمالك

شاي باللبن في الزمالك

فتحي سليمان

رواية

الطبعة الأولى, يناير ٢٠١٩ م

رقم الإيداع:

تبارك للنشر والتوزيع

تصحيح لغوي: علي راشد.

الإخراج الدَّاخلي: إسلام أحمد.

تصميم الغلاف: محمد محسن.

كافة حقوق النَّشر محفوظة
لا يُسمح بإعادة طبع أي جزء مِن الكتاب بأي طريقة, ورقيَّة أو إلكترونية أو صَوتيَّة إلَّا بعد الرجوع للناشر والحصول على أذن كتابي منه. يسمح فقط الاقتباس البسيط مِن الكتابة فيما يخص الدراسات والنقد؛ وذلك طبقًا لِما تحدده قوانين الملكيَّة الفكرية.

شاي باللبن في الزمالك

رواية

فتحي سليمان

إهداء

إلى رُوحِ البطلِ المصريِّ **"الأمين عبد الله"**
لعلك لا تتذكره! وربما لا تعرفُه!
لكنه -وهو بينَ الحياة والموت- حلم بك
وهو مُفعمٌ بالثقةً أنكَ في يومٍ من الأيام..
ربما اليوم،
وليكن الآن..
لن تتأخر في الترحم على روحه الطاهرة.
عندما تعلم من هو الأمين عبدالله.

قصي سليمان

(١)

السؤال الذي كان يدور بين المرابطين حول القصر؛

- ما الذي نفعلُه؟

من أين يأتينا هذا الإصرار؟!

كيف اتفق الجميعُ بهذه الجُرأة على منعِ الوزير من دخولِ مكتبِه؟ ولماذا وزير الثقافة بالذات؟!

على مدار الأربع والعشرين ساعةً نتناوب حراسة المكان.. تأتينا الأخبار، إنه يبحث عن مكان يمارس منه مهام وظيفته المُجمدة بأمر الشعب!

نسخر منه ومن تاريخه المجهول.. نردد خلف كل من غنّى للثورة.. ونرد التحية للسيارات التي تلوّح بالأعلام.

نتناول الإفطار على الرصيف المقابل للوزارة، ندون بعضنا أرقام هواتف بعض، نتبادل التحيات بإيماءةِ رأس، نُطلق التحذير بنظرة عين.

تطل النسمات قادمة من صفحةِ النَّهرِ فنُفسح لها مكانًا بيننا وتتسع عينا بائعة الشاي وهي تتساءل: "إلى متى سيصمدون؟! كوب الشاي أطلب جنيهين ثمنًا له ولا يعترضون! بل إن الكثير منهم يتطوَّعُ بإعادة الأكواب الفارغة، وعلى شفاههم تقفز كلمة "شكرًا" مثل النَّدى".

جاءت لترُد لي بقية العشرة الجنيهات، وقالت وهي تتجه ناحية شارع ٢٦ يوليو:

- أنا خلاص شطبت، الساعة داخلة على أربعة الفجر .. أروح أشوف العيال وأنام لي ساعتين.
- الرابعة فجرًا!

عندها تبادلنا والصمت أطراف الحديث، وأخذت أختلس النظر إلى وجه محدثتي التي شاركتنا الجلسة منذ منتصف الليل، بدا لي وجهها أكثر وضوحًا.
استدرتُ أواجهها، وأنا أسترجع ما قالت منذ جلوسها بجوارنا عن فجيعتها لوصول الإخوان لكرسي الحكم، ونقدها الحاد للمتلوّنين وعاصري الليمون. وفرحتها، كطفلةٍ، عندما رأت شباب الاعتصام يطاردون فئران الإخوان على رصيف الكورنيش، ولمعة عينيها وهي تصف صفعة "رشا العزب" التي تركت بصماتها على قفا المغير. وصراخ عمرو عبد الهادي وهو يهرول مبتعدًا عن أحذية الشباب.

كل تفصيلة ذكرتها وكل كلمة من حوارها الشائق كانت تمحو تجعيدة خطّها الزمن على وجهها الأبيض، ورقبتها التي تحمل رأسًا مصبوغ الشعر وعيونًا واسعة كانت تطالعني بابتسامة خلف نظارة طبية رخيصة.

* * *

عند نهاية شارع "شجرة الدر"، بالتحديد تحت أعمدة الكوبري الخرساني، فقدت أثر "قدرية"، كانت تتحدث إلى رفيقتها "ملك" وهي تهمس لها بشيء، وكأن لسان حال "ملك" وهي تستوقفها عدة مرات أنها لا تصدق ما تحكيه..
ثم تكملان السير عقب هزّة مؤكدة من رأس "قدرية".

أسرعتُ الخُطى حتى النصف الأيمن من "شجرة الدُر"خلف المسرح.. أتعجب كيف أخذتها خطواتها الرتيبة لأبعد من ذلك.

يمينًا اتجهت ناحية شارع البرازيل، فهو الطريق الأقصر لبيتها القديم؛ أكثر الشوارع ازدحامًا في الرابعة والنصف صباحًا... قليلة كانت المقاعد التي انسحبت من الرصيف لتعود أمام المقهى. رائحة تبغ التفاح ظلت تلاحقني حتى مبنى سفارة "الجزائر".

عسكري الحراسة رفع رأسه من فوق حزمة الجرائد التي ألقتها سيارة صحيفة "الأهرام" وابتسم لي كأنما يقول إن النسخة التي يأخذها حق له وأن صاحب الكشك يعلم ذلك.

* * *

على الرصيف الأيمن لشارع "محمد مظهر" أخذ النسيم القادم من ناحية النيل يدفعني لعبور الشارع وأنا أمتنع.

ملأني الرعب من عبورِ الطريق، لم تكن سوى بضعة أمتار تفصلني عن المنزل الذي ولدتُ وكبرتُ فيه، المنزل الذي طالعت العالم من فوق سطوحه، مكعبات صغيرة كانت تبدو السيارات والمارة كانوا بحجم المسافة التي تقع بين سبابتي وإبهامي.

- كم كان جميلًا شكلُ العالم من أعلى، وآمنًا، بعيدًا عن العجلات المسرعة وأحذية البشر.. وعيونهم وهي تتابعنا حتى باب المدرسة؛ المدرسة التي جمعت أبناءهم وأبناء البوابين!!

استغرق الأمر قرابة الساعة حتى عاد رئيس النقطة إلى مكتبه، اشتبه بي حرس سفارة "العراق".. سألوني عن سبب وجودي في هذه الساعة المبكرة، واسترعت أضواء سيارة الشرطة انتباه رجل عجوز خرج من بوابة العمارة وجاء حيث نقفُ، وهو يختم صلاته بالتسابيح...

أصر أمين الشرطة على الذهاب لقسم الجبلاية، وتطوّع الرجل الكريم للذهاب معنا.

* * *

- "أحمد صالح إدريس.. والده الله يرحمه بلدياتي.. كان بواب العمارة قبل استلامي لها".

أخذ ضابط النقطة الشاب يتنقل بنظره بين ما يقوله الرجل العجوز وبين عجوز آخر.. لا تبدو على سماته سوى الهدوء والاستمتاع بما يدور حوله، مع نداء حرس سلاح انتفض الضابط واقفًا ووضع غطاء رأسه.. كان مأمور القسم عائدًا من إحدى جولاته التأمينية.

خلف حديقة الأسماك سرتُ، وبجواري رجلٌ يشبه والدي في كل شيء؛ جلبابه، وعمامة رأسه، ولهجته الجنوبية.

- أعرف والدك منذ أوائل الخمسينات، كان بشوشًا على الدوام. يبادر بإلقاء التحية على الجميع، يهنئ كل صاحب فرح.

لا يخلو صِوان عزاء من وجوده، رأيت جمرات النار في عينيه وهو يطالع سُحب الدخان تعلو منطقة وسط القاهرة في يناير ١٩٥٢.

كان يصرخ فيمن حوله:

- الإخوان، الإخوان. هم خلف تلك الحرائق!!.

كراهيته لهم جلبت له مشكلات كثير، تحرشوا به على قهوة "خزان أسوان"، ولولا وجود إخواننا النوبيين والسودانيين لدارت بينهم خناقات كثيرة، أبوك كان يمتلك حزامًا من الجلد الأسود يشبه الكرباج، في اللحظة اللي تمتد فيها أصابعه ناحية وسطه، أو ينطق واحد من الموجودين باسم المعلم "كروم" ينسحب الإخوانجية من المقهى.

لا يقتربون من جامع السلطان "أبو العلاء" حين يصلي فيه أبوك العصر والمغرب بعد نهاية ورديته، وينتهزون وقفته صامتًا فوق الكوبري وهو يصلي الظهر ليتطفلوا على السيارات بحجة جمع تبرعات لمساجدهم.
على مقاهي "عابدين" كلها كان أبوك مُرَحَّبًا به، نلتف حوله نسمع حكايات الجزيرة وقصورها الناعسة وذكريات الثورة، ونقرأ الفاتحة على من رحل ونتفق متى نزور مريض.

يسأله الشباب:
- هل كان اللواء "نجيب" إخوانيًا؟!.
فيجيب بحسم:
- لأ، لم يكن. كان حسن النيّة، و سياسيًّا محنكًا". أجّل الصدام معهم حتى يخرج الإنجليز من منطقة القناة؛ لأن الثورة الشابة لا تحتمل أكثر من عدو في وقت واحد.

قطع حديث ذكرياته عن أبي ونظر لي:
- هل كانت الديمقراطية تصلح للبلد، والإنجليز على بُعد ثلاث ساعات من القاهرة!
جاوبني يا ابن الناس الطيبين؟.
اندهشت من السؤال، واقترحت عليه أن يطرحه على المعتصمين أمام الوزارة؛ فقال ضاحكًا:
- سيفعلون نفس الشيء. زمت شفاهك، وطوّحت كفيك في الهواء.
أمام سيارتي التي كنتُ تركتها خلف عمارة "ليبون" عرضتُ عليه توصيله لشارع "مظهر"، لكنه قال إنه يريد السير في الهواء قليلًا، احتضنته وشكرته، وأكمل طريقه في الشوارع الهادئة قائلًا:
- من يوم ما رجعت من بلاد برة وهي لا تفوّت شاي العصاري!.

(٢)

كلما جاء الشتاء،

تذكرتُ أصابع "قدرية" وهي تنام كالعصفور بين راحتيّ، كان البرد يصل لأطرافها متعمدًا وكانت توافقه، بل كانت تشجعه. لتتسلل أصابعها البيضاء لجيوب بنطلوناتي الدافئة، في الطريق من وإلى المدرسة تحت ظلال أشجار البانسيه المبلولة بماء المطر.

نظلُّ نخبطُ برفقٍ بين أيدينا، ونتبادل الأماكن حتى تدفأ أصابعها الشمعية ويعود اللون الأحمر لعروقها الزرقاء.

"قدرية" أو "أودري" كما كانت تدعوها جدتها "قوت هانم" نسخة ممصرة من "أودري هيبورن"؛ الأنف الدقيق، خصلات الشعر السوداء الغزيرة، الرموش الطويلة التي تنام في مخدع جفن يصلح كبرواز جميل لعيون أجمل.

لوحةُ لفنانٍ لم يبخلْ عليها بأنابيبِ ألوانِه، وشفاه استنفدت اللون الأحمر كله؛ تيمنًا بالأميرة "قدرية" ابنة السلطانة "ملك جشم" والسلطان "حسين كامل" جاءت فتاتي تحمل اسمًا من العصر الخديوي في زمن الجمهورية الأولى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢.

الجد كان ياورًا للعائلة العلوية، والجدة كانت وصيفة الأميرة "سميحة" في قصرها الذي تحوّل الآن إلى مكتبة القاهرة الكبرى بالزمالك، على بُعد خطوات من الأرض الفضاء التي شيّد عليها ابنها "شوكت" عمارتين الواحدة خلف الأخرى وبينهما حديقة تحولت إلى جراج عندما كثرت السيارات.

* * *

"قدرية شوكت سرّي" ابنة العائلة الشركسية تستمع بكل انتباه إلى "أحمد صالح" وهو يقرأ نشرة الأخبار المدرسية، وتؤدي تحية العلم في طابور الصباح:
- الرئيس "جمال عبد الناصر" يزور مصنع الحديد والصلب في حلوان بمناسبة عيد العمال.
الرئيس "جوزيف تيتو" سيحل ضيفًا على المعرض الزراعي بأرض الجزيرة.
مسابقة أوائل الطلبة ستقام في موعدها المحدد ٢٥ مارس ٦٧ وإدارة المدرسة تتمنى التوفيق للجميع.
على صوت قرع الطبلة الكبيرة، ورنّات قطع الألومنيوم الصادرة عن آلة الإكسليفون يتجه التلاميذ إلى فصولهم وخلفهم المدرسون، تخرج كتب الوزارة والكراسات التي تحمل على غلافها الخلفي أهداف الثورة الستة، يبدأ يوم جديد من أيام الستينيات الجميلة.

(٣)

كلمة "جزيرة" بمعنى الأرض التي تحدّها المياه من كل جانب حسب التعريف الجغرافي.. لا ينطبق في مخيلتي على الزمالك فالكباري وقِصر المسافة بين منزلنا، وحي بولاق وميدان التحرير من ناحية والكيت كات من الناحية الأخرى لا تدعم هذا التعريف. لكن شكل الحياة المُترفة ورائحتها الذكية والهدوء الذي يلفُ شوارعنا بعد الخامسة عصرًا يقول: لا، هذه جزيرة، وجزيرة نائية جدًّا؛ لأنها لا تُشبه بولاق وحواريها الضيقة وملامحها المُتعبة!!

الحياة في الحي الهادئ لها طعم آخر..
العمائر صممت لتستضيف البراح والخصوصية، الشمس والنور بنود هامة في الرسم الهندسي، الأسقف العالية تمتص الصوت، وتمنح الهواء الفرصة بأن يدور ويمرح بين المكان.

نوافذ العمائر التي تُطِلُّ على النيل تقبع خلفها ستائر من الدانتيلا تحجب الرؤية عن العابرين بالمراكب النيلية.
المصاعد الخشبية تشبه دواليب الأطقم الصينية ودرجات السلالم الرخامية تشابكت أصابعها لترحم كِبار السن.
الخضرة.. الخضرة التي تُشعرك بأنها الساكن رقم واحد في الجزيرة.

* * *

من فوق سطح العمارة يبدأ عالمي؛ مملكتي التي لا يتهمني فيها أحد بالتطفل.
تنساب موسيقي "باخ" و"موتزارت" ورائحة السيجار الكوبي، والنبيذ المعتق من الشرفات المطلة على سلم الخدم.
من خلف الستائر الموارية تبدو بدايات لوحة على كانفاس مشدود. وكتاب بين صفحاته Book Mark وخصلات شعر تطير مع هواء مجفف كهربائي.

* * *

خليط البشر الذين يسكنون الجزيرة يشكلون مجتمعًا كوزموبوليتانيًا بفكر فرانكوفوني النزعة، أرفف المكتبات تزدان بكتب السانسيمونيين والرافعي والعميد المنياوي طه حسين خريج السوربون.
مصريون يتحدثون لُغات عديدة ويعملون في وظائف عبر البحار ودبلوماسيون من بلاد العالم أجمع، رجال صناعة وبنوك وصُناع قرار، فنانون وأدباء وأساتذة من الجامعات المصرية والجامعة الأمريكية.
عائلات تنتمي للعصر الملكي طالتها يد التأميم، وأخرى من صعيد مصر جاءت بعد أن تقلَّد عائلها منصبًا في الحكومة أو الوزارة.
عائلات يونانية، كُنّا نخشى السير تحت شرفاتهم ليلة رأس السنة، لما يلقونه من أطباق قديمة، وعائلات إيطالية جاءت هربًا من الفاشية وأخرى قبرصية ومالطية وكريتلية.

* * *

تعشق موسيقى وأغنيات "ألفيس بريسلي"، وفي الخريف تربُط حول رأسها إيشاربات ملونة لتبدو مثل نجمتها المفضلة "أودري" في فيلم Breakfast at Tiffany's وفي ساعات

العصاري وشوارع الجزيرة خالية من المارة والبوابون على مقاعدهم الخشبية يدخنون السجائر الماكينة تصعد إلى السطوح لتلحق بشاي الساعة الخامسة.

ينزلق الطوق الخيزراني حول وسطها النحيل وسط صيحات تشجيعنا: "هولا هوب.. هولا هوب" يظل الطوق يدور ويدور وهي تطوّح ذراعيها في الفضاء، وحبّات الكريز تصرخ:

It is now or never
Come hold me tight
Kiss me my darling
Be mine tonight
Tomorrow will be to late
It is now or never
My love won't wait

* * *

سماء الستينيات جميلة وقمرها أكثر لمعانًا، والغريب أنه كان يأتي قبل غروب الشمس ليبدأ ورديته قبل الميعاد.
على سور السطوح نضع أكواب الشاي الأبيض لتُمر بينها مراكب الصيادين عائدة إلى "روض الفرج" ونظل ننقل الأكواب على السور حتى تختفي المراكب مع رشفاتنا.

الليل كان ينصرني على بياض "قدرية " الشاهق حين يملأ السماء، تتسلل أصابعها الرقيقة إلى تفاحة آدم التي برزت في عنقي، تضحك بينما تتحرك تحت أصابعها، ألتقم بأسناني هذا الأصبع الذي ما يزال يحمل بقايا البسكويت، فتتركه بين شفتي.

كم كان شهيًّا طعم بسكويت والدتي على أصابعك يا "أودري" يتبدّل الأصبع المبلول بآخر وآخر، فتشيرين بلسانك النونو إلى فتافيت أخرى علقت بجانب فمك.

It is now or never

Come hold me tight ..

(٤)

"صالح إدريس فلّاتة"

مواليد العام ١٩٢٣، شهادة ميلاده تشير إلى شهر مايو، لكنه دائمًا ما يقول: "اتولدت قبلها بشهرين".

جاء إلى القاهرة بدايات العام ٤٢، شابًّا يحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن ويفُك الخط.

نزحت أسرته إلى "أسوان" عقب هزيمة جيش "التعايشي" وانفراط عقد الثورة المهدية.

توسّط له أحد الأقارب ليعمل خفيرًا نظاميًّا في الحراسات بوزارة الداخلية.

قفز من المركب الذي حملهُ من "دراو" واستقبله خالًا لأمه عند سور مجري العيون.

بعد أربعين يومًا من التدريب على الصفا والانتباه وكيفية تحية الضباط، تسلم عمله على كوبري "أبو العلاء".

يقضي ساعات عمله اليومي مترجلًا من أول الكوبري حتى الثلث الأخير منه؛ يتأكد من هويّات المشاة الذاهبين إلى حي الزمالك ويمنع الباعة الجائلين من عبور الكوبري.

يعرف كل بوابي حي الجزيرة وخدمه، ويتبادل إيماءات الرأس مع سائقي السيارات البويك والكاديلاك، ويؤدي التحية بكل نشاط للستائر المُسدلة على زجاج الكراسي الخلفية.

يحفظ مواعيد فتح الكوبري، وتتوقف السيارات القادمة من شارع "فؤاد" بإشارة منه.

وإلى حين استئناف حركة المرور.. يظل يطالع ورد النيل يتهادى على صفحة النهر حتى تحجزه الشباك المعدنية أسفل كوبري "إمبابة".

غطاء الرأس الذي يحميه من حرارة الشمس صيفًا، يستبدل به في الشتاء آخر له إضافتان من الصوف تحمي أذنيه من الهواء البارد، وفي الأيام الممطرة يختبئ تحت سقف كابينة رفع كوبري أبو العلا.. وزميله تحت كابينة كوبري الزمالك كما كان يحلو للجميع تسمية الجزء المقابل من الكوبري باسم "الثُمن" التابع له إداريًّا. كان إذا ظهرت جثة غريق أو حاول أحدهم الانتحار، يكون محل الواقعة مهمة القسم التابع له؛ لذلك يتبارى كل قسم في دفع الجثمان بعيدًا عن نطاق مسؤوليته!

(٥)

٦ من فبراير ١٩٤٤م

الظهيرة

حدثت واقعة ظل والدي يحكيها كثيرًا؛

فوجئ بالكونستابل"الأمين عبد الله" يتوقف أمامه، وصوت مكابح دراجته النارية يصرخ وسأله:

- هل رأيت أحدًا من عمال شركة التلغراف قادمًا من ناحية الجزيرة؟.

أجابه والدي نافيًا؛ فالوقت قارب على صلاة العصر ومنذ دقائق مرّت سيارة اللورد "موين" وسبقها تروسيكل محل "توماس"، واتجها ناحية الزمالك، أحس والدي أن شيئًا ما حدث فأخذ يتابع "الأمين" وهو يستدير عائدًا.

في منتصف الكوبري رأى الكونستابل شابًّا عشرينيًّا يرتدي ثيابًا مدنية، وحذاؤه مترّب يقود دراجة هوائية تخص شركة التليفونات، في أول الكوبري تباطأت دراجة أخرى عندما لمح قائدها الموتوسيكل.

استمر "الأمين" في سيره.. حتى ضمن دخول الدراجة الثانية طريق الكوبري، وعاد ليصدم الدراجة الأولى في إطارها الخلفي؛ فتمايل قائدها مترنحًا وسقط على الأرض، واتجه "الأمين" إلى الدراجة التي شارفت على أول الكوبري يقودها شاب أصفر اللون يتنفس بصعوبة شديدة.

ما إن رأى هذا الشاب الكونستابل متجهًا ناحيته حتى قفز من فوق الدراجة، تاركًا إياها تصطدم بسور الكوبري وفي محاولة يائسة للهروب ارتقى أحد الأعمدة!
أسرع والدي مهرولًا لمساعدة "الأمين" الذي أمسك بقدمي الشاب الذي ينزف دمًا من فمه إثر ارتطامه بالعمود الحديدي.
طوّق والدي ذراعي الشاب خلف ظهره؛ راح الشاب في غيبوبة. ظن والدي أنه مات.
دقائق وانفجرت سرينة سيارة البوليس قادمة من ناحية الجبلاية وتبعتها بلحظات أربعة سيارات جيب من معسكر الجيش الإنجليزي بميدان الإسماعيلية الذي صار اسمه التحرير في ما بعد.

أغلقت سيارة الكوبري لتمنع القادمين من بولاق وأسرعت أخرى ناحية الزمالك، وإذا بالكونستابل البطل يظهر قادمًا من ناحية قصر الخديوي إسماعيل دافعًا أمامه الشاب الثاني ومصوبًا مسدسًا إلى رأسه.
نامت الجزيرة تلك الليلة، بل "مصر" كلها سعيدة بالقبض على الجناة.

ظل الشاويش "صالح إدريس" يذكر اسميهما كلما حكى "الحدوتة":

- الأول.. إلياهو بيتسوري، والثاني.. اللي أنا بركتُ عليه اسمه برضو إلياهو... إلياهو حكيم.

شابان من عصابة "شتيرن" الصهيونية.. قدما خصيصًا للتخلص من اللورد "والترموين" وزير المستعمرات الإنجليزية في التاج البريطاني. على وصف "الأمين" وجد والدي الحفرة التي خبأ فيها الشابان ملابس مصلحة التلغراف ومسدسًا.. وأيضًا أحضر طربوش "الأمين عبد لله" من أرض "مقلة باشا" أمام نادي الخواجات.

صباح العاشر من نوفمبر ازدانت صحيفة الأهرام بصورة الملك فاروق، وهو يُقلد "الأمين" نوط الجدارة الذهبي..ظلت الجريدة في يد والدي طيلة النهار يخبط بها على كفه الأيسر،

الذي استقبل ساعده شريطة إضافية ومبلغًا محترمًا كمكافأة استثنائية، وانزاحت بعض الستائر عن النوافذ الخلفية للسيارات العابرة تردُّ التحية للشاويش صالح...

التف أبناء التكارنة حول والدي في شقتهم التي استأجروها بجي عابدين، لتكون مقرًّا لتجمعهم في الأفراح والتعازي يستمعون إلى ما كُتب تحت صورة "الأمين" ويستعيدون المرة تلو الأخرى السطر الذي ذُكر فيه اسم والدي.

تمت ترقية الكونستابل لدرجة الملازم وأصبح مسؤولا عن سرية الدوريات الراكبة، وأعقب ذلك تنويه عن عائلته؛ فوالده هو الأميرالاي "محمد عبد لله" حكمدار أسيوط السابق الذي خدم في مديرية الفاشر وبحر الغزال.. من مواليد ميت غمر. والدته هي السيدة المصونة "فاطمة" ابنة سلطان بحر الغزال الحاج "جمعه كيانجو" التي أنجبت لسعادة الأميرالاي أربعة أولاد هم: المعتصم بالله والأمين والمؤتمن والمتوكل وثلاث بنات هن سوسنة وتنهدات وابتسامات...

قاطعه أحد الحاضرين قائلًا:

- الترقية دي فيها قروش زيادة؟

زمَّ والدي شفتيه وقال:

- وإيه تسوي الجنيهات الخضرا أمام مسدس محشو بالرصاص، تصوروا لو ما كانش النصيب أرسل سي "الأمين" في الموعد المناسب، كانت مصر كلها انقلبت رأسا على عقب... تفتيش وقلة قيمة.. اتهامات، واعتقالات، الحمد لله إنهم طلعوا صهاينة، الغريبة إنهم عملوا حساب كل حاجة، جابوا العجلات ماتعرفش منين! وفصّلوا أوفرولات كاكي شبه لبس المصلحة وشوية سلك وسماعتين وراقبوا المكان كويس جدًّا، كل شيء يا جماعة الخير، إلا حاجه واحدة، الكونستابل ومعاد مروره المظبوط على الساعة، سبحان الله، تصاريف ربك، البلد دي زعق لها نبي.

(٦)

عندما خمدت نيران الحرب العالمية الثانية، رحل كثير من الإيطاليين واليونانيين عن الزمالك، وحلَّ مكانهم كثير من الأرمن وأهل حمص وهم تجار (مانيفاتورة) للأقمشة والمنسوجات، والأرمن الذين كانوا (صنايعية شاطرين) في السينما والدخان والصاغة، وأهل الإسكندرية الذين هربوا من طائرات هتلر، وتحرش البغال الأسترالية ببناتهم، وعدد من اليهود الذين كانوا يسكنون الوجه البحري واستضافتهم عائلات أقاربهم.

عمارة "قويدر" كانت معقل للشوام، أما عمارة "ليبون" فضمت مديري شركة الكهرباء الأجانب بالإضافة إلى بعض أساتذة الجامعة الأمريكية وهناك شقتان استأجرتهما جريدة "البروجرية" لمحرريها الفرنساوية.
كانت جراجات العمائر زاخرة بسيارات الـ"جالوبي" ذات الهياكل الخشبية وسيارات الـ "تاونس" والفورد، والشباب كانوا يفضلون الـ "ستروين" deux Chevaux 2 cv.

المملكة المصرية كانت حلم كل أجنبي للعمل وكسب المال.. الجنيه الورقي قارب الجنيه الذهب، على الرغم من السرقات التي قامت بها بنوك أوبن هايم وجويش وسالفاجو

الجريجي، وألاعيب بنوك الرهانات اليهودية مثل بنك "نسيم كورييل" والد مؤسس حدتو الشيوعية الخواجة هنري.

ماطل الإنجليز في الجلاء.. وخرجت المظاهرات تطالب بالاستقلال.. كلٌّ على حسب مقدرته؛ الوفد والسعديون وطلاب الجامعة والنقابات المستقلة والعمال، حتى القلة القليلة من ضباط الجيش المصريين الذين ظلّوا يتساءلون منذ عودتهم من الفالوجا وعين رمانة... كيف خسرنا حرب الـ ٤٨؟ هل بسبب أن الإنجليز خدعونا؟ أم أن جماعة الإخوان لم تكن في صفوفنا الأولى؟!
وكانت في صفوف اليهود الأولى!!

(٧)

بعد الثورة ظلت الزمالك خارج نطاق الاشتراكية. لم تفتح قلبها وعقلها للعصر الجديد كبقية الأحياء؛ قصورها وفيلاتها تكتنفها شبورة ضبابية.. لا تعلم من يسكنها ومن يمتلكها؟ صحيح أن بعض القصور تحولت إلى مدارس حكومية وقنصليات لدول عربية وأجنبية.

لكن ظل البعض الآخر مثل بيوت الأشباح!! إضاءة خافتة ومداخن لا تنفث روائح طهي، وبعض الأسوار الحديدية الجميلة تحولت إلى جدار أسمنتي تسمع من خلفه نباح كلاب البولدوج والفايبر.

(٨)

ببعض عيدان من البامبو وأوراق السيلوفان الملوّنة صنعنا طائرات ورقية نرسلها مع الريح لترى ماذا تخبئ تلك الجدران، عادت مرات كثيرة تحكي عن زهور جميلة ترويها سيدة عجوز وبجانبها كلبها اللولو يتشمم الحشائش الخضراء، وعن غادة بلجيكية تتمتع بحمام شمسي بجوار بركة سباحة.

العنب الذي لم تطله أيادينا القصيرة لم يكن مُرًّا، بل علقمًا عندما اكتشفنا أن بعض القصور صارت (جرسونيرة) لبعض الضباط الأحرار!!

لم تسلم الطائرات الورقية من التحليق بسلام كل مرة.... فوق فيلا الخواجة "ماتوسيان" عادت ممزقة ومصحوبة بتحذير بإطلاق النار!! أصبحت الفيلا منطقة عسكرية.. ممنوع الاقتراب منها أو التحليق والتصوير فقد كان دُخان المشير "عامر" الأزرق يحجب الرؤية.

ذات مرة... عبرنا الطريق متخطين أرض المعارض وأمام كازينو قصر النيل، خاصمت الريح طائرتنا الورقية، رفضت أن تحملها مهدهدة مثل كل مرة ألقت بها ناحية مبنى مجلس قيادة الثورة وكأنها تتخلص من هم ثقيل على صدرها، اصطدمت الطائرة بالمبنى، فقدت توازنها وعادت تترنح ناحية مياه النيل.. لملمت خيط الدم الذي سال على أوراقها الملونة.. تشبثت "قدرية".. بذراعي وأخذنا نصرخ على الطائرة أن تتماسك، خيوطها أدمت أصابعنا الصغيرة، وأنفاسنا ظلت تلهث وكأننا نحن من يهوي.

عادت والدموع في عينيها تحكي عن رجل أسمر بأكتاف عريضة، وأنف فرعوني جميل يصرخ ويدق بقبضة يده على مكتب خشبي، حملنا جثمان الطائرة الورقية وعدنا نسأل كل من يقابلنا.

(٩)

لماذا يبكي الرجل الشجاع؟
وكيف اختفى صوته النحاسي عندما أطل علينا حزينًا.. يتكلم بصعوبة نادمًا على ما جرى في سيناء!!
كيف جاءته الجرأة أن يعتذر عن استكمال المشوار.. يتنحى! يعود إلى صفوف الجماهير..!
لأ .. لأ..
نزل والدي يخبط بها على السلم الحديدي.. لأ.. لأ.. ظلّت الصرخة تخبو كلما نزل دورًا وعادت قدماه تدقُّ أرضية السلم البارد بالخطوة العسكرية التي كف عن مشيتها يوم أن ترك الخدمة في نهاية عام ١٩٥٤.

على سور السطوح وقفت والدتي وبجوارها أختي الكبرى "فادية" وأخي "فاروق" يطالعون مشهدًا قلَّما يحدث في الجزيرة الهادئة! البوابون وخدم المنازل وسياس الجراجات يسيرون جنبًا إلى جنب السكان من أبناء البهوات والضباط والخواجات يصرخون.. لأ.. لأ.

(١٠)

استقال اللواء "محمد نجيب" من رئاسة نادي الضباط إرضاءً لرغبة الملك "فاروق" حتى يهدئ اللعب، ويشتت ذهن الملك ويقتل الإشاعات التي تقول إن اللواء يتزعم مجموعة من شباب الجيش، أو ما يسمى بالضباط الأحرار.
وأعطى الضابط الشاب "أنور السادات " معلومات مغلوطة ليلقي بها في حجر "يوسف رشاد". الدكتور "يوسف" كان صاحب نظرية الحراسة الحديدية.. أي الحراسة عن بُعد! بمعنى أن الملك والقصر حمايتهم تبدأ من ثكنات الجيش ومقار الأحزاب والسفارات وجماعة الإخوان... الحراسة ليست أجساد تمنع عنك طلقات الرصاص بل هي معلومات تسبق التفكير في الاعتداء، وكان "أنور" يضخم في "يوسف" ذاته العبقرية ويعرف مفاتيح شخصيته الزائفة.

أعاد الملك "حسين سري عامر" لرئاسة النادي وعيّن في واحدة من مفاجآته "إسماعيل شيرين" وزيرًا للدفاع!

أثناء عملية استعراض العضلات، لزم اللواء "نجيب" منزله يزوره المقربون فقط.. زيارات عائلية بعيدة عن المنصب ومشكلات الصراع.

"الأمين عبد لله" وزوجته السيدة المصونة "منيرة هانم" والشاويش "صالح إدريس" وابنه البكري "فاروق".. وبين الحين والآخر يحمل الهاتف صوت الرجل الوقور الصامت دومًا اللواء "عبد لله النجومي".

* * *

من يناير حتى يوليو ١٩٥٢ اقترب الضباط الأحرار من سطح الأحداث بحذر شديد. يرقبون الموقف بطرف العين، يلعبون المباراة بقانون وطريقة لاعبيها، يتواجدون في كل مربع من رقعة الشطرنج، يظهرون الولاء للتاج المصري ولكبار رجالات الجيش.

يخفون عداءهم للمحتل الإنجليزي، يصلّون خلف مرشد جماعة الإخوان نهارًا ويحضرون اجتماعات الحزب الشيوعي ليلًا! وفديين يكونون وسعديين، وإذا لزم الأمر أحرارًا دستوريين! وكلما اقترب الموعد الذي حدده "ناصر" لليوم الكبير، كانت صكوك الوفاء والولاء له تتراكم حول قلبه كشرايين تضخ دمًا ودعمًا يكفيان للتحليق فوق قصر عابدين.

في ليلة صيفية من ليالي يوليو الحارة، طرق اللواء "محمد نجيب" باب شقة الضابط "محمد حبيب" زوج السيدة "ابتسامات عبد لله" أخت "الأمين" وفي كلمات مقتضبة دفع إليها بشنطة جلدية صغيرة قائلًا: "احتفظي بهذه الأمانة حتى أرسل من يأخذها منك.. فالأيام القادمة ستحمل الكثير"، حاولت إبقاءه على العشاء وإغراءه أنها بالصدفة أعدت ملوخية بالجمبري التي يحبها، لكنه عضّ بأسنانه على الغليون ولوّح بذراعه، واتجه ناحية كوبري القبة.

(١١)

الألقاب مثل الباشا والبك ظلّت متداولة في جزيرة الزمالك..
بينما اختفت من على صفحات الجرائد والمجلات الفنية، ومعها صاحبة العصمة والوجيه الأمثل.
رحل "فاروق" بخطوات ثقيلة، عن يمينه ويساره بدلات كاكي، ما إن اهتزت المركب الصغير من ثقل جسده وانقشع دخان طلقات المدافع، لمعت على رصيف الميناء نجوم ترقد على أكتاف من سيصنعون الأيام القادمة.

(١٢)

سبتمبر ١٩٥٢

أُلحق والدي على قوة المباحث العامة... يتبع إداريًّا قسم الجبلاية... ترك الزي الميري وأصبح يرتدي جلبابًا وفوقه معطف، وسمح له باعتام ما يودُّ، لا يعلم بالتحديد ما هو المطلوب منه... بعيدًا عن الكوبري شعر بالضياع وفقدانه للشرائط أفقده كثيرًا من وزنه، يخرج من منزله الكائن بحي "عابدين" يركب الأتوبيس النرش حتى آخر الكوبري.

سيخطو الآن داخل حي الزمالك، وسيرى أين يذهب الذين كانوا يمرون عليه كل صباح ومساء...

...

ما هذا الهدوء!!! لا عجب أن "الأمين" سمع صوت الطلقات من مسافة بعيدة!! البوابون يتحدثون همسًا، وسعاة البريد يضعون الرسائل في صناديق خشبية ويرحلون في صمت جميل.

يبدو أن معركته ستكون مع العصافير.. فهي الوحيدة التي تسبب ضجيجًا!! ظل يجوب الشوارع بحثًا عن شيء يفعله... عن جريمة، وليكن كلب عقر طفلًا أو سيارة صدمت كلبًا!!

هذا الهدوء ورائحة الياسمين والفل الهندي وزقزقة العصافير لا تخلق مجرمًا ولا تلقي بالرجال إلى مستنقع الإدمان، على الجانب الآخر من النهر يتقاسم الأفيون رغيف العيش مع الفقراء!! الضجيج يجعل البشر يتعاركون على أتفه الأسباب... شيخ الجامع هنا لا يصرخ مذكرا المصلين بوجود الله..

يبتسم والدي وهو يرى حبّات التوت تصبغ سيالة جلباب صبي المكوجي، والمنديل المحلاوي الذي يخفيه شيخ الجامع خلف زيّه الأزهري.
لا أحد يستطيع أن يقاوم طعم البامبوزيا، ومتعة الحصول عليها بالمجان.
لا غفير يصرخ عليك بالابتعاد ولا خولي زراعة يركض خلفك.
كل ما عليك هو أن تشارك طيور الزرزور والهدهد والغربان الزيتونية في التقاط حبّات البشملة والجميز والمانجو من فوق الأرصفة. ولا تلقِ بالًا لسرسعة الكلاب اللولو، فهي لا تُخيف حتى القطط.
أخذته خطواته إلى الكوبري مجددًا... هنا كانت له مهمة.. كان عمل يتبع وزارة الداخلية.. لكن فرد مباحث.. يبدو أنها وظيفة تتبع إدارة البصاصين زمن المماليك.
...

أمضى الشهور المتبقية من العام ٥٢ والعامين التاليين بين تأمين شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقًا) عند مرور موكب الرئيس "نجيب" والتسكع في الشارع المؤدي لمقر قيادة الثورة مؤديًا التحية لناصر ورفاقه أثناء دخولهم وخروجهم من المبنى.

(١٣)

للوهلة الأولى..

أدركت أن صاحبة الكفين اللتين تحجبان الرؤية عني هي "قدرية"، ومع ذلك سألت: من؟

هذا العطر الذي رافقني ساعات نومي البارحة، أعرف صاحبته، ومع ذلك. سألت: من؟

أكثر من ثلاثين عامًا افتقدت هذه الأنامل البيضاء المنحوتة من فوندام... حاولتُ الالتفات، لكنها منعتني.

راحت أصابعها تتلمس أنفي، وانزلقت نحو تفاحة آدم، تلك التفاحة التي أكلها أبونا آدم ووقفت في قصبته الهوائية.

لثمتُ راحتي كفيها. شممت رائحة بسكويت أمي وقفز الحليب يعربد في بحيرة المساء، همست في أذني:

لقد أكملت المائة!! عندي ابنة الآن!!

تلاشت أصوات الشباب الذين يغنون فوق خشبة المسرح، فرغت الشوارع من المارة، اختفت العمائر والقصور وأكشاك الحراسة، بقي فقط النيل؛ على يمينه شارع "محمد مظهر" وعلى يساره أشجار تملأ الفراغات وعصافير تغرد للصباحات الجديدة ونتيجة حائط تبتسم بالستينيات... الأيام التي سقطت أوراقها خضراء لتنبت كلٌّ منها شجرة خضراء.

على الرصيف أطفال يرتدون ملابس المدرسة الصفراء، وبأيديهم حقائب بعضها جلدي والآخر من قماش تيل نادية، عندما عبروا الرصيف المقابل استبدلوا بكتب التعليم الابتدائي كتبَ الإعدادية التي تضم مادة العلوم والجغرافيا.

علت ضحكاتهم وهم يتبارون من يصل أسرع إلى شارع شجرة الدر حيث مدرستهم الثانوية.
من اختار القسم العلمي دلف إلى فصول الدور الأول.
بينما طلبة القسم الأدبي ارتقوا الدرج نحو الأدوار التالية.
ضاقت الجزيرة الناعسة على أحلامهم الشابة.. عبروا طرفها الشمالي إلى محافظة الجيزة حيث مدرجات جامعة القاهرة.
والحياة بين أحضان الجامعة ومشوار الأتوبيس النهري، واليوم الدراسي الطويل، نقلوا برودة أصابع الفتاة البيضاء إلى بقية جسدها فسارت تتمسح بأحمد صالح وتنام على صدره وهي تطالع عمارات جاردن سيتي ومقياس النيل.... وفي صمتِ المحاضرات الليلية تتسلل ساقاها لاعنة الشتاء البغيض وتلتصق بالقماش الجينز الخشن الذي اشتراهُ من وكالة البلح ويحمل دفء الحواري البولاقية.

(١٤)

كانت الدنيا مشغولة بشؤونها الخاصة؛ همّ النكسة وسنوات الاستنزاف والصوت العالي للمعركة، بينما وردة بيضاء تتبع ظلًّا أسمر أينما ذهب، لم يكن أمرًا ملفتًا للنظر بين أرجاء الجزيرة المتحضرة؛ فكثير من الأجانب لهم أبناء متبنّون ذوو بشرة سمراء، وأبناء الجاليات الإفريقية تلمع أسنانهم البيضاء في حفلات الاستقبال الدبلوماسية ويراقصون أجمل فتيات أوربا، وكثير من المبعوثين إلى "روسيا" عادوا بزوجات في لون النهار، وكانت أمي تتندر بأن الشاي بالحليب أصبح المشروب الرسمي للجزيرة.

...

يوم صراخ جمهور النادي الأهلي باسم اللاعب "أحمد صالح" السكندري الأسمر الذي أحرز هدفين في مرمي نادي الزمالك... كنتُ أظن أن الأغنية التي يلاحقني بها الجميع تخصني أنا.

أحمد يا صالح لو جبت جون ... لأرش الملعب سكر وليمون

كانت غالبية سكان الزمالك تشجع النادي الذي لا يحمل اسم جزيرتهم ويفرحون في النادي الذي يقع في "ميت عقبة" واسمه "الزمالك"!

نصر "أكتوبر" أعاد للّون الكاكي رونقه وفرح الشعب مجددًا بالدرع والسيف، وعاد أخي "فاروق" يحمل "نجمة سيناء" على صدره وشهادة تقدير ومبلغ ١٧ جنيهًا مكافأة من القيادة، ليعلن أنها آخر الحروب وأن القادم أحلى مع الأمريكان!!

"فاروق " الذي قضى ٧ سنوات على الجبهة يتكلم بثقة عن الأيام القادمة ووالدي يهز رأسه موافقًا!! أيام واسترد "فاروق" عافيته ولفظت معدته الأكل الجاف، وعاد ليعمل مع العم "دهب" في تجارته.. الدولار القادم الجديد أصبح رئيسًا للحي!! يغير ملامحه وينتقي مفرداته ويرشح له الزوجة المناسبة..

تزوج "فاروق" من الأخت الصغرى لـ "يحيي دهب" زوج أختي "فادية" ودخلت تجارة العُملة في قاموس كلمات البطل العائد من آخر الحروب.

(١٥)

عندما كانت خطواتي تسبقني إلى كوبري أبو العلا منتظرًا "قدرية"،
تُطِلُّ حكايات والدي عن فيلم "جريمة في الحي الهادئ" تؤنسني حتى تلحق بي.
هبط العم "أمين" من سيارة يقودها رجل أبيض في خريف العُمر.. بين ترحيبات والدي وذراعيه المفرودتين عن آخرهما، قبضت أصابع اللواء السابق "عبد المنصف محمود" على كف والدي:
"حد يسيب الداخلية يا راجل يا طيب؟!".
- "النصيب يا سعادة الباشا، النصيب".
نظر الأمين في عين والدي فغاب الكلام، وأدرك اللواء السابق أنه داس على جرح ما زال ينزف..
لملم والدي أشلاءه وصبغ وجهه بابتسامة رسمية وأمر "فاروق" بفتح زجاجتي مياه غازية.
...
المعالم تغيرت كثيرًا عن العام ١٩٤٤.
ما زال منزل اللورد "موين" كما هو، والشوارع المؤدية إليه تنعم بالهدوء نفسه، لكن المكان الذي دارت فيه المعركة بين سي "الأمين" وإلياهو الآخر أقيمت عليه عمائر كثيرة.
في كل مرة عندما يبدأ والدي في سرد الحكاية. تصل "قدرية"، لنعبر الكوبري نحو محطة الأتوبيس النهري.. أساسات مبنى وزارة الخارجية التهمت البيوت الصغيرة التي كانت ترى النيل.. وأسطوانة مبنى التلفزيون تشبه خلية النحل بعيون نوافذها الصغيرة.
الحوائط الإسمنتية أصبحت تتحرش بزرقة السماء، فهربنا منها إلى صفحة النهر وهو يعكس زرقة لن تطولها أيدي البشر، وفي ظلمة ظلال الكباري نختطف قبلات طويلة لا يمنعها محصل أو رقيب.

* * *

وزّع الضابط المسؤول عن تأمين ركب الرئيس "نجيب" المهام على أفراد قوة المباحث، كان من نصيب والدي القطاع الذي يضم منطقة "السبتية" و"أتينا" مرورًا بـ "القلّاية" حتى شارع فؤاد.

كل وجهاء حي "بولاق" يعرفون والدي معرفة شخصية منذ حادث اللورد "موين".. جاءت صينية الشاي بالحليب مصحوبة بتحية المعلم "إبراهيم كروم"... وتزينت بلكونات الشوارع بأعلام مصر.. عساكر الدرك من ناحية المدرسة الإيطالية ومستشفى الولادة حتى عمارة البدراوي عاشور ومقام السلطان في زيِّهم الرسمي يمنعون المارة من عبور الطريق، وخيول سلاح الفرسان تنتظر الموكب على طول الكوبري الحديدي.

صفع الهواء البارد وجوه الواقفين، وعامل التذاكر لسينما "فؤاد" أغلق شباكه يائسًا من وجود زبائن لحفلة العاشرة صباحًا، وجاءت جمهرة من سكان "العلوة والسندبيسي" يتقدمهم شاب في بداية الأربعينات يحمل عصاه ويرقص على أنغام فرقة مزمار بلدي.

...

أشار المعلم "إبراهيم" للفرقة بالتوقف وتقدم فاتحًا ذراعيه لوالدي، بينما الأطفال يغنون:

يا نجيب يا حتة سُكرة

ريسنا.. شمعة منوّرة

من فوق منصة خشبية... أخذ أفراد جماعة الإخوان يشيرون للشاب "كروم" ليصعد بجوارهم ليكون في استقبال اللواء.

(١٦)

كثيرًا ما كنت أتساءل:
هل ورثت كراهية هذه الجماعة عن طريق والدي، أو من الأحاديث التي كانت تدور أثناء زياراتنا لمنزل "الأمين"؟
الإخوان صنيعة الإنجليز، وهذا المدرس المغربي الأصل كان يتقاضى مبلغًا شهريًّا نظير وأده أي بذرة تعاطف مع الألمان بين صفوف المصريين.

عقب كل تفجير يصيب منزل عائلة يهودية، كان والدي يشم رائحتهم، ويلمح بصماتهم في المكان، تهاجر العائلة اليهودية وفي عيونه دموع خروج جديد وتسكن مكانهم أسرة تنتمي الى جماعة البنا! تندلع النيران في محل مانيفاتورة أو صائغ ويأتي عمال ليعلقوا يافطة تحمل اسمًا جديدًا.

يوم أن استوقف نفرٌ منهم سيارة الشركسي العجوز "سري" باشا، عند أول الكوبري يطالبونه بالتبرع للمسجد تصدّى والدي لهم وأبعدهم عن الرجل الذي تحوّل وجهه للّون الأحمر، وهم بإخراج مسدسه من تابلوه السيارة.

أي تبرع هذا الذي يكون عَنوة وبقطع الطريق؟! يطلقون على أنفسهم الأتقياء!! ويصرخ خطيب مسجدهم في "العدوية" أن:

- "إبراهيم كروم" أصبح فتوة الأتقياء بعد أن كان فتوة الأشقياء!!!

أي أتقياء هؤلاء الذين يخفون في أحد منازل عائلة "كروم" عدد ١٥٦ بندقية سرقوهم من عتاد حرب ١٩٤٨ بنادق سليمة وصناديق ذخيرة لم تفتح!! أخفوهم ممَّن؟ واحتفظوا بها لمن؟

في ١٩٥٦ وجنود المظلات الفرنسيين والإنجليز يهبطون فوق مدينة "بورسعيد" انتظر "إبراهيم كروم" كثيرًا ظهور أي من أفراد الجماعة يطلب السلاح المخزون، المقاومة الشعبية تبحث عن قطعة سلاح... مرت الأيام وهو يسأل نفسه:

هل يريد الإخوان عودة الاحتلال؟؟
هل أخطأ عندما وثق بهم وظن أنهم وطنيون؟؟

عبر الكوبري وجلس بجوار والدي يسأله النصيحة.
صبيحة اليوم التالي... احتضن الزعيم "ناصر" المعلم "إبراهيم" وقال له: "يبدو أن الفترة التي قضيتها وزيرًا للداخلية لم تكن كافية لكشف ألاعيب الإخوان، لكن الحمد لله فالشعب المصري بإيمانه وإدراكه لدوره الوطني وحبه للبلد يستطيع أن يُحسن الاختيار".

ابتسموا جميعهم عندما ذكرهم والدي باللافتة التي علقها المعلم "إبراهيم" أمام القصر الجمهوري عندما عاد "جمال" من الهند، وكانت تقول: "فتوة مصر يحيي فتوة العالم".

(١٧)

ظلّت الدقائق التي حجبت فيها أصابع "قدرية" الرؤية عني تمسح أرجاء المعمورة: أين كانت؟ وكيف اختفت كل تلك السنين؟ صوت الطلق الناري والدماء التي ملأت حذائي هما آخر ما أتذكره من هذه الجزيرة، صراخ "قدرية" من وراء باب الشقة صاحَبَني وأنا أعدو على السلالم.

المدينة تغلي... المظاهرات في الشوارع الرئيسة وحرس السفارات ومنازل الأجانب يراقبون مداخل الزمالك، غبتُ عن الوعي على الرصيف المقابل حيث يقف أخي "فاروق".

فقدت الشوارع علامات الطريق، تردد المشاة في العبور عندما اختفت الخطوط البيضاء، ركضتُ فوق الرصيف أتسند علي الجدران. أنزف وأترك أثرًا لمن يتعقبني، وبالدمع أمحو خطواتي.

تجمدت إشارات المرور عند الضوء الأحمر، كل المفارق كانت تشير إلى الاتجاه نفسه وتصرخ: "اجري.. اجري... لو قبضوا عليك فستدفع وحدك فاتورة الغلاء".

حملني فاروق فوق كتفيه وركض... وأمام فيلا قديمة تخفيها الشجيرات الكثيفة أسندني إلى سورها المتهالك، دخل لبضع دقائق وخرج غاضبًا:

"العاهرة رفضت مساعدتي، أغلقت الباب في وجهي، كل ما استطاعت فعله هو أن ألقت إليّ بمفاتيح السيارة وهي تختبئ خلف الستائر". غبت عن الوعي إلى جواره..
راح يهزني بقوة، فتحت عيني على شخص يحمل دورق مياه
وصوت يغمغم:

"الطلقة في الفخذ. إنها بندقية صيد يا فاروق.. الحمدلله.. الجرح عريض ولكنه ليس عميقًا".

الصباح نشيط في "مدينة العمال" يستيقظ مبكرًا لصلاة الفجر، ويرتّل ما تيسر من آيات القرآن، يتناول فطوره ويخرج لإنتاج الحياة.. هذه الأيام فقط يحمل غصّة في قلبه!

ذلك العار الذي وصمه به الرئيس المؤمن. حرامية! سُبّة يرفضها الجميع، في أتوبيسات الشركات ووسائل النقل العامة تتندر بها المقاهي والأمهات وهن ينشرن الغسيل.

أربعة أيام وفاروق تلهث خطواته بين الزمالك والبلوك الذي أختبئ به، يحمل لي أخبار والديَّ، ويدّس في جيب صديقه عم "علي" الممرض أوراقًا نقدية ليشتري غذاءً ودواء، يسأله عم "علي" وهو يغني ما ردده الشعب في المظاهرات:
أحيه.. أحيه.. أحيه كيلو اللحمة بقى بجنيه أجيب لحمة من أم جنيه يا فاروق؟
الجرح يمنعني من مواصلة الضحك... والكيس البلاستيكي الذي قدمه لي فاروق قفز منه وجه "قدرية"!

جلباب أبيض وغطاء رأس! قلبتها بين يديّ! وأنا أردد خلفهُ:

قطار الساعة ١٢ إلى أسوان!.. الليلة.. الليلة!

أنظر اليه متسائلًا دون كلام! فيهُز رأسه مجاوبًا وملعقة تدور في كوب شاي باللبن بين يديه تتجه نحوي.

(١٨)

قالت المرأة: "ستكملين المائة..".

اتسعت حدقتا "قدرية"، وصرخت في العرافة: "أي مائة! هل تقصدين مائة عام؟! هذا فظيع.. العيش حتى هذا العمر مُتعب للجميع".

رفعت المرأة العجوز حاجبيها ولزمت الصمت... ابتعدتُ قليلًا عن مرمى عينيها عندما نظرت لكفّي...

هل يستطيع أحد قراءة كف أسمر ترتدي خطوطه لثامًا يحجب عيون الغد؟ يكفيكِ الخمسة قروش التي حصلتِ عليهم من الكف الأبيض.. أما أنا فسأصنع مستقبلي بنفسي بالرغم من تشابك الخطوط والخطوب.

ضحكنا كثيرًا في طريق عودتنا... الحديقة ممتلئة بالمحتفلين بشم النسيم. الزهور تبتسم للجميع والنسيم يتراقص فوق وجوه الصبايا اللاتي يدُرن خلف بعضهن مقلدات صوت القطار، والأولاد المختفين خلف الشجيرات يصرخون "لسّه"، بينما ينادي طفل ارتكن بذراعه الصغيرة على نخلة يصرخ: خلاويص!

مائة عام يا "قدرية"..

يبدو أنكِ ستعاصرين أحفاد السادات وهم يكملون مسيرة الانفتاح التي بدأها جدهم الأكبر.

(١٩)

أعلنت إدارة الكلية أن تسليم شهادات التخرج للدفعة ٧٦ – ١٩٧٧ سوف يتم ابتداءً من ١٨ يناير، هاتفت "قدرية"، جاء صوت محدثي جافًّا مقتضبًا.

- "أنا أحمد.. أحمد صالح يا عمي".

- "عما الدبب!! قول أحمد ابن البوّاب يا سعادة الباشا!!".

نعم، ما تُفكّر به.. هو بالضبط ما انتابني وقتها.. عادت الباشوية بكل شراسة عندما أعاد "السادات" كثيرًا من الأراضي للإقطاعيين وطرد منها فلاحي الإصلاح....

* * *

يومها تذكرت.. وقفتنا فوق ظهر الكوبري نُطالع جثمان الزعيم "ناصر" يمرُّ من على كوبري قصر النيل محمولًا فوق أكتاف أبناء الأفندية، يومها اهتز كوبري الزمالك كغربال يفصل بين الأغنياء ناحية اليمين والخدم وأهل بولاق ناحية اليسار.

* * *

لماذا لم ينبهني أحد؟؟ لماذا لم أقرأ أنا عيون من حولي!! من يعيشون بجوار النيل يخشون النداهة! لكن والدي لم يذكُرها في حواديته الليلية، بل كان يُحذرنا من الدوامة!! لا تنظر في عين الدوامة.. لا تنظر في عين الهوة. لماذا لم أستمع لنصيحته!! لماذا استعذبت مرارة الدوران في تلك الدوامة؟

كنت أهرب من النظر لأسفل، أظل أطالع حديد الكوبري، أعمدته الخضراء الصدئة، أسلاك الترولي، أشتت ذهني بالنقر على أخشاب الممشى، أبحث عن غراب يعبر النهر، أتجاهل شراع مركب ينتظر عبور الكوبري، صوت مذياع مبحوح بجوار صياد وحيد.
غير مرة جذبني صوت خُوار صادر من أسفل!! قادني الفضول ناحية السور البارد.. أكان صوت كركرة مياه شيشة صادر من فلوكة سياحية أم موتور فوق صندل حديد؟ تجمدت يداي قابضة علي السور.... شهقتُ.. إنها الدوامة وخُوار يشبه عِجْلًا لم يُحسن الجزار ذبحه.
ورُحت أدور وأدور.
حاولت الصراخ لكن المياه ملأت صدري. لا تنظر في عين الدوامة... ظللت أدور وأدور مع دوائر تغوص لأسفل وهي تخور وتصيبني
بحالة خِدر لذيذ. أتامل رقيقة تُزيح قميص نوم شفافًا ليظهر من تحته صديرية ناعمة وأصبع محشور يدغدغ حلمة وردية، وشفاه تصرخ بنصف اسمي في شبق، وانزلقت خطواتي غائصة نحو نن عين الدوامة.

* * *

كل ليلة أقفز محتضنًا الموت بخطوات وئيدة، يصرخ سلم الحريق من نيران لقاءاتنا وتختلط الألوان في زبد الدوامة، خوار يتركني غائم العينين أستنجد بالعابرين فوق الكوبري وأتساءل:

- لماذا نظرت في عين الدوامة ولم أطالع النهر من جوار الشاطئ، مثل بقية أبناء البوابين؟

* * *

هل أقوى علي التصريح إن ما كان بيننا هو حب؟! بالتأكيد لا، لم يكن سوى رفقة طريق... مشوار ذهاب وإياب تم في غفلة من الزمن، وقت مستقطع سمح به حكم المباراة لإرضاء ثورة شابة مدللة، تتقافز ضاحكة فرحة بشرائط شعرها الملونة ونجوم أكتافها الذهبية.

ثورة تغاضى الجميع عن صخبها ودلعها ونكاتها الساذجة، فلم يشكو من أطاحت بطربوشه، واعتبر ذلك مزحة بريئة، ومن جذبت مؤخرة بدلته الاسموكن ساخرةً، برر ذلك بأنه عربون محبة!! وفي زحمة الاحتفالات وصوت الضحكات العالية والأناشيد الوطنية اندس ابن البواب من تحت السرادق المُقام احتفالًا بالسنوات البكرية، ظن نفسه معزومًا فأطلق العنان لكفّيه بالتصفيق ولعقيرته بالغناء. شاركته "قدرية" كورال تسبيح الوطن الجديد وحمد حركة الجيش المجيدة والأهداف الستة؛ أوبريت استمر ١٨ عامًا من أجمل سنوات العمر.

لا أتذكر أننا التقطنا أنفاسنا بين وصلات الغناء، كانت الموسيقي صاخبة والحماس شديدًا، كانت الأيام السبعة تشبه سلم الموسيقى، ناعمة تنساب بين أجواء الجزيرة وأرجاء المحروسة.

تتسلل بين أيام العمر، تتشابك معها أصابعنا البيضاء والسمراء، ترقص فوق أرصفة الشوارع كأصابع البيانو لا تخشى الغطاء الثقيل.

يد على مقود السيارة والأخرى تهزُّ كتفي..

يحادثني بصوت عالٍ، يصرُخ ثم يخفت صوته، يُطالع الطريق، وتبطش كفُّه ببوق السيارة:

"نحنُ لا نصلح للحب والزواج! إنهم يستخدموننا كقطع غيار بشرية، يستعيدون بنا الزمن الغابر، يمتصّون شبابنا مقابل المال. هل رأيت ماذا فعلت تلك العاهرة؟ أنا كُنت فارس لياليها! الحاكم الآمر في تلك الفيلا، كانت تأتي بالطعام الساخن والدخان حتى مدخل "نفيشة" أيام تجنيدي، عساكر الوحدة وضباطها كانوا يحسدونني على جمالها وعودها الأبيض، أنا كنت آخر فاروق بعد الثورة يا أحمد..

بقالة منزلها من جيبي.. نبيذها الأحمر وسجائرها ذات الطعم النعناعي من جيبي حتى مشترياتها من الشواربي.

الجزيرة كلها تعلم أني ملاكها الحارس، أنا الذي أبعدت عنها كوادر الحزب الشابة! اليوم تخاطبني من وراء الباب! وتصرخ في وجهي "أنا لا أقوى على تحمل غضبه".. سوف يقول إن الشيوعيين خلف هذه المظاهرات، وسينتقم مني
وهو يعلم أني مجرد عاهرة تعمل معك في تجارة العُملة.. ارحمني! أرحمك!كيف؟! وأخي يموت بالخارج!".
أخذ يخبط على المقود..كل خبطة بدرجة سلم نزلتها مفزوعًا،
والدماء تمسح دموعي ودموع فاروق الملك الأسبق للسلالم الخلفية.

(٢٠)

"سامي حلمي طابات"

لم أكره في حياتي مثلما كرهت هذا الاسم وحامله.. كان طفلًا نكديًّا لا أتذكر له يومًا رأيته فيه يبتسم!! دائم الشكوى.. وافتعال المشكلات. كان يسبقنا بخطوات ليُبلغ حرس بوابة نادي الجزيرة بأني لست عضوًا فأضطر إلى التسلل عبر السياج الذي يفصل النادي عن الأرض التي اقتطعها الرئيس "جمال" لتكون مركز شباب الجزيرة، يدُس أنفه الأفطس في شنطة "قدرية" المدرسية.

يفرِد صفحات الكتب بحثًا عن خطاب حب أرسلته لها، يختلق حكايات لزجة عن بطولات فعلها في الوقت ما بين عودتنا من اليوم الدراسي حتى صباح اليوم التالي.

يتعمد إرسال والدي لشراء أغراض لا يحتاجها عندما يرافق جدته في زيارتها لبيت عائلة "قدرية"، مات كمدًا حين فشل في فك رموز شفرتنا الخاصة بالاختباء بعيدًا عن تطفلهِ.

يظل يجوب أنحاء الجزيرة بداية بالمركز الثقافي الإيطالي، مرورًا بحديقة الزهرية، وتكعيبات حديقة الأندلس الخشبية المنعزلة عن العيون.

صداقتنا بسكان مراكب الصيد أنقذتنا من حبال مشنقته، في دقائق نكون قد عبرنا النهر منسلّين إلى كازينو الشجرة على الضفة الأخرى.

قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة سافر مع عائلته إلى "إنجلترا" حيث يعمل والده بالتجارة وانقطعت أخباره عن الزمالك.

مع هوجة افتتاح سلسلة محلات الـ "ويمبي"، جاءت الرياح من الشمال البارد بما لا تشتهي سفينتي.

عاد صاحب الأسنان الفارقة، وقد ألجم خروجها عن السطر بسياج يقال عنه في الدول المتقدمة طبيًّا "تقويم"، عاد خريج الهارفارد ومعه المتاعب لمعدة المصريين ولقلبي.

"سامي" الذي كُنا نتندر عليه في المدرسة وعلى ذكائه المحدود دائمًا في منطقة النصف؛ في العربي ثلاثة ونصف من عشرة وكذلك الحساب.. نصف طفل.. نصف عقل.. نصف إنسان..

في حصة الإملاء كان مدرس اللغة العربية يمازحه قائلًا:

"تهجى يا سامي جملة "يا صابت يا طابت" واستخرج منها ظرف زمان؟!".

(٢١)

أثناء فرح الأميرة "فاطمة" ابنة الخديوي "إسماعيل"، وعند مرورها بين حرس الشرف سقطت قطعة ألماظ لم تكن مثبتة جيدًا بالفستان.

جاء المشهد أمام عين الوصيفة الجديدة لـ "خوشيار هانم"، راقبت الموقف بطرف عينيها! مع إنشغال الحضور بمشاهدة الزفّة، والتقاط الخدم للجنيهات الذهبية، انسلت الوصيفة لتقف أمام ضابط وسيم.

تراجعت بمؤخرتها ناحيته وسمعت صوت أنفاسه، حاول الرجوع إلى الخلف فمنعه عمود رخامي.. قبضت الوصيفة على عضوه الذكري.. عندها تأكدت من وجود الألماظة داخل فردة القفاز الأبيض.

هذه الحكاية وغيرها تتردد على مقاهي "عابدين" و"باب اللوق" عندما تأتي سيرة عائلة "طابات" والسر وراء زواج ضابط شركسي بوصيفة من أصول ريفية بسيطة.

(٢٢)

جاءت برفقة "ملك" شابة في منتصف العشرينات.. ممتلئة قليلًا، ترتدي فستانًا صيفيًّا، وتحمل تحت إبطها شنطة من الخوص مُضفر بشريط من النايلون اللامع، تتحدث العربية مثل هنود لندن الشرقية.. نظراتها زائغة متململة: "ماما.. من فضلك!" تنبهت لوجودي بجوار والدتها. فهزت رأسها محيية.

نظرت إليَّ في ريبة عندما مازحتها قائلًا: "أهلا بالآنسة مائة". لم تفهم الفتاة ما أعنيه... استأذنت في الانصراف لارتباطها بموعد، ضمتها "قدرية"، وهمست في أذنها: "المفتاح معاكي؟".

(٢٣)

ثلاثون يومًا..

قضيتها مختبئًا في منزل أختي "فادية" بضاحية "السيل" بمدينة أسوان. بكيت كثيرًا لفراق والديَّ دون وداع، أصبحت بين ليلة وضحاها من حرامية الانتفاضة!! تركت كل محلات وسط المدينة وهجمت على شقة صاحب العمارة، لولا وجود عريس ابنته وعائلته لتمت عملية الاقتحام..

في يوم كان المقرر فيه حصولي على شهادة التخرج جاء اسمي ضمن الجاري البحث عنهم مع اليساريين والشيوعيين.

(٢٤)

"الإخوان قادمون"

صرخت فتاة من ناحية الكورنيش، فاتجهت كل الأنظار ناحيتها، وخرج بعض من كانوا داخل مبنى الوزارة، عاد الصوت من جديد يطمئن الجميع إنه أتوبيس جاء من الإسكندرية يحمل معتصمين جُددًا.

انتهزت فرصة فك الحصار عن عيني واستدرتُ لأرى وجهًا يحمل أجمل سنوات عمري...

(٢٥)

تستيقظ عصافير الجزيرة قبل السُكّان..
تغني نشيد الصباح، تحيي الحياة في ثوب يوم جديد، تصوصو وكأنها تحكي بعضها لبعض أحلام الليلة السابقة ومشاوير اليوم الجديد.
يتمطّع ضوء النهار وينفُض عن جسده الرقيق ملاءة الليل، تتسلل رائحة القهوة من النوافذ، سريعة التحضير في شقق الأوربيين... ناعمة كسولة تفور كعين ماء حار في شقق الأسر ذات الأصول التركية، تتقافز شرائح الخبز المُحمص دافئة تتباهى بلونها الأسمر، بينما تنزلق عيون البيض لامعة تتوسد المخادع السيراميك البيضاء، تتراقص ستائر الدانتيلا مع أنغام ما ينساب من أجهزة المذياع، وأزيز طائرة شراعية يطنُّ قريبًا من الأسطح.

على باب العمارة انتظرتُ "قدرية" حاملًا لها خبرًا عظيمًا، قرأته على مسامعها بطريقة مقدمي الأخبار: "لقد قرر والدي السيد صالح إدريس شراء جهاز تلفزيون ١٤ بوصة تليمصر، وذلك رضوخًا لطلبات الجماهير". وقفزت عاليًا ألمس أوراق الأشجار.. أخيرًا سأتمكن من مشاهدة هذا الصندوق السحري في غرفة دافئة، بعيدًا عن درجات السلم الحديدي البارد، أخيرًا سأمارس الجزء الممتع والأهم في امتلاك تلفزيون وهو وقت تركيب اللاقط الهوائي (الإيريال)... لذة توجيه دفة شرائح الألومنيوم لالتقاط الإشارة. يمينًا قليلًا.. لا.. لا.. يسارًا.

ارفع المقدمة قليلًا حتى لا تصطدم بالكوبري، ونظل نضحك عندما اقترحت والدتي بمد سلك حتى مبنى التلفزيون بحجة أنه قريب.

"فوقية قنديل" صلة القرابة بينها وبين أسرة "شوكت سري" عبارة عن أقفاص الدجاج والبط والأوز والفطير المشلتت وبطرمانات العسل الأبيض والجبن القريش.
تصرُّ على وجود كل أبناء البوابين والسيَّاس ومعارفهم، والوقوف على الرصيف صفًّا واحدًا ليحمل كلٌّ منهم نصيبه مما يُخرجه السائق من بطن السيارة التي تشبه عربات نقل الموتى.

ما إن تفتح والدة "قدرية" باب الشقة حتى تصرخ فينا جدة "سامي طابات" بإدخال ما نحمل إلى المطبخ في مشهد يكاد أن يكون مسرحيًّا بامتياز.

تأتي بصحبة عدد كبير من الخادمات صغيرات السن.. وتظل تأمر وتشخط فيهن أمام العائلة الشركسية.
الوصيفة التي تزوجت بوضع اليد ظلّت ترتدي اليشمك وكأنها من أميرات البيت العلوي، وباعت صوريًّا مئات الأفدنة لأقاربها لتتهرب من قوانين الإصلاح الزراعي.

أفعى ريفية من بنات الفلاحين الذين كدحوا في مزارع الباشا الكبير بناحية "شبرا الخيمة"، عندما شب عودها عملت وصيفة، وابتعدت عن رائحة الأرض وروث البهائم.
كانت تفضل أخي "فاروق" لأنه يناديها بصوت عالٍ "فوقية هانم" ويفتح لها باب السيارة منحنيًا وكأنها الوالدة باشا.

(٢٦)

في ميدان التحرير

خلال الـ ١٨ يومًا لثورة يناير أيقنت أنه في اللحظات التاريخية،
لا يمكن خلق قيادة شعبية من الفراغ، اكتفى جميع الذين نزلوا الميدان بصدق أن مطالب الثورة هي قيادتها الحقيقية.
على الرغم من الوجوه الكالحة التي ظهرت على طرفي الصراع؛ الإخوان كان بعض منهم بين الثوار والبعض الآخر تحت مبنى التلفزيون يحملون صور مبارك مرتديًا قميصًا صيفيًّا.

الفيس بوك عند أطراف أصابع الشباب ولكن لا شيء يملأ أكفهم، الأربعون عامًا من حكم السادات وحسني كانت أشبه
برحلة تيه في صحراء الوادي.

أربعون عامًا سخرت منا نجوم السماء فضعنا في دروب الحياة، وأصبحنا ندور حول أنفسنا نبحث لاهثين عن لقمة العيش، غير أنني اكتشفت في الميدان روعة صرخة الـ "نحن".
في حناجر الشباب الذين خرجوا غاضبين عندما تضخمت الـ "أنا" وأصابتها لوثة الإعجاب بجمال "الأنا".

صوت طلقات الخرطوش أعاد إلى مسامعي الطلق الناري وليالي الشتاء الباردة تصيب الجروح القديمة بداء الذكريات.

ما يقرب من الثلاثين عامًا ظل بطن البلد مفتوحًا لكل من يوّد السرقة؛ لصوص يمددون أسلاك الهاتف، يأتي بعدهم لصوص آخرون يبقرون البطن ليطرحوا مواسير الصرف الصحي.
وما إن يردموا ما أهالوا عليه التراب، حتى يأتي آخرون ليطرحوا مناقصة جديدة، ثم يأتي بلاط الأرصفة من مصنع الابن الأكبر بمدينة العاشر من رمضان ليخفي آثار الجريمة تلّو الجريمة، لم تجد خيوط الجراحة مكانًا تلتقم فيه قطعة جلد من لحم الشوارع وجسد البلد.

(٢٧)

الغُربة لا تُهديك حُبا
بل حنينًا لما فارقته، كل شيء تراهُ في نهارك يذكرك بحدث بعيد،
كُل الوجوه تُكمل الشبه الأربعين.

كل اللقاءات عبور، عبور خاطف لا يترك محلًّا في القلب، كُنت في أحلامي ورد نيل بلا جذور يتابعني والديَّ من فوق الكوبري.

تحملني المياه المُتجهة نحو الشمال دومًا، أركن لبعض الوقت
خلف عوامة أو أعلق بصندل نهري يحمل قواديس فخارية،
أرقب المجرى بعين واجفة، أخشي عسكر الكباري!
أطالع أماكن تجوالهم فوق الحديد البارد.
يختفون خلف الأعمدة الصدئة، يرقبونني بنظرات مختلسة، يطفئون أعقاب سجائرهم في ظهر أوراقي، أصرخ في مناماتي، أركض متفاديًا المراكب السياحية الفاخرة، ولكنة السياح الأمريكان فوق أسطحها. لربما أبلغوا صديقهم عن رؤيتي.

أهرب من شرطة المسطحات بالغطس عميقًا حتى تذبُل أنفاسي، أصيحُ في العشاق الجالسين على كورنيش النيل:
أنا لست حرامي.. لست حرامي!

كل ما فعلته أنني أحببت، ولم أنتبه لتحذير والديَّ من الدوامة.
يُلوّث الدم لون الماء من حولي، تختنق الكلمات فوق شفاهي.

يدخل الماء حلقي مصحوبًا بطعم النشادر وصابون غسيل الأواني، وصوت عاهرة أخي تصيح في سخرية:
"حرامي.. حرامي.. حرامي.. لا يُطلق النار إلا على الحرامية.
اعذرني.. اعذرني".

أعدو مبتعدًا عن صوت خطواتهم الثقيلة وسبابهم الجارح، أفيقُ مذعورًا قبل أن أصطدم بسلك المصد الشائك..
أجلس معتدلًا على "العنجريب" أمسح دموعي وأجفف أنفي، وأقول لمن يربت على ظهري: "كل ما فعلته أنني أحببت!".

(٢٨)

في الأسابيع القليلة التي كنت أقضيها في القاهرة... أحرص على اصطحاب والديَّ لزيارة عمي "الأمين" في منزله، حزينًا كان على رحيل شريكة عمره السيدة الكريمة "منيرة" ابنة الأميرالاي "محمود كامل" رئيس سلاح التجنيد الأسبق، مرت خمسة وأربعون عامًا لم يرزقا بأولاد وكانت الحياة بينهما نموذجا للاحترام، والحب المتبادل.

يسأل والدتي عن أخبار "فاروق" و"فادية" ويذكر أسماء أبنائهما، ويفرح عندما يعلم بانتقالهم من مرحلة تعليمية إلى أخرى، يومها قالت له والدتي: "تزوج يا سعادة اللواء.. فما زلت شابًّا.. ستينيات أيامنا تعادل شباب هذه الأيام.. الحياة تحتاج لأنيس.. والدهن في العتاقي".

رن هاتف المنزل وإذا بصوت أخته "ابتسامات" يأتي من السعودية تطمئن عليه، وتنصحه بمثل ما قالت والدتي.

كان اسم "فاروق" يستدعي كثيرًا من الأحزان في ذاكرة "الأمين".
لا أقصد الملك فاروق فما فعله "الأمين" وقت حادثة الزمالك لم يكُن من أجل عيون الحفيد الألباني.. بل من أجل "مصر"، ومصر وحدها،
"فاروق محمد نجيب" الشاب الأسمر الرياضي عاشق لعبة التنس؛ تشخيص الطبيب الذي أصدر شهادة الوفاة يقول نتيجة نوبة قلبية، وعيون الجثمان كانت تحمل سؤالاً أبكم.. من هو والدي؟ رئيسًا للجمهورية أم عدوًّا للثورة!! سؤال احتارت فيه والدته السيدة "عيشة" وكان العم "الأمين" يطالبه دومًا بالترفق بنفسه، وأن يدع الأيام تجيب بالنيابة عن والده ووالدته.
...
رحل "فاروق" و"علي" في ظروف غامضة وظل الأب صامتًا يقرأ الجرائد كل صباح، ويدخن غليونه في كبرياء يليق بعسكري وقور.

بكاهما الأمين وبكى معهما حرمانه من الأولاد.. رحيل "فاروق" كان أصعب من خبر مصرع "علي" في ألمانيا"، لم يتكرم موظفو السفارة على العائلة المكلومة سوى بكلمات مقتضبة:

" شجار في ملهى ليلي مع مجهولين" أودى بحياة علي محمد نجيب ابن الرئيس الأسبق للجمهورية العربية المتحدة".
لكن "فاروق" كان هنا أمام أعينهم يعاني من وقاحة الحراسة وتضييقها الخناق على من يزورون والده، من بائعي خضار وخبز وحليب!! حتى الشاويش "صالح" الذي قدم استقالته من الخدمة وارتدى جلبابًا أبيض، وامتلك دكة خشبية أمام عمارة بالزمالك، لم يسلم من أسئلتهم! واستعلامهم عن ملفه الوظيفي في وزارة الداخلية.
أرسلوا خلفه رجلًا يرتدي معطفًا ويدُس جريدة تحت إبطه! استضافه يومًا على كوب شاى بالحليب، ونصحه بالاستغناء عن الخرزانة حتى لا يفسد صورة المخبر التقليدية.

* * *

عندما يصرخ المخرج "حسام الدين مصطفى" بكلمة فركش! يتجمع طاقم العمل في الفيلم حول سيادة الرائد "الأمين عبد لله" وينهمر سيل الأسئلة حول شكل الحياة في القاهرة أيام الأربعينات، وكيف استمرت صداقته بالشاويش "صالح" بالرغم من تركه للخدمة بالمباحث عام ١٩٥٤، وكيف قاوم الأمين مضايقات بعض الضباط بعد قيام الثورة، وفكرة التخلص من كل من عملوا مع النظام الملكي.
أحيل الكثيرون من الكفاءات الوطنية في البوليس والجيش
إلى الاستيداع، ونقل الآخرون إلى وظائف حكومية، لكن القُرب من اللواء "نجيب" أنقذ والدي و"الأمين" عامين حتى حدثت المشكلات بين سياسة الضباط الشباب وأفكار الرجل العجوز التي تنتمي إلى طريقة حزب الوفد في إدارة شؤون البلاد.

"ناصر" ذكر رقمًا يكفي للعيش الكريم، و"نجيب" زاد عليه أضعافًا. "ناصر" يضع أمام "نجيب" قوائم بحجم الملكيات والأبعديات المترامية الأطراف والمبايعات الكاذبة لأسماء وهمية!
"ناصر" ينفجر قائلًا:

- "إنه باطل جاء بصحبة عاطل يا سيادة الرئيس".

و"نجيب" يرد عليه في صوت وقور: قلل من قائمة أعدائك يا جمال.
كل من ذهب الى عمله نهار الثورة، تفاجأ بالدبابات تحيط بالقصر
ارتبكت خطواته!
الشعب الفقير فرح بحركة الجيش، لكن هناك على الطرف الآخر من يعتبروننا مصدر إزعاج.
مطابخ القصر لم تعمل.. حدائق القصر صاحت: "شربة ماء" أوراق نتيجة الحائط التصقت بعضها ببعض خوفًا من قادم الأيام.

وجاءت جماعة الإخوان والتعامل معها كالقشة التي قصمت ظهر البعير.

"نجيب"كان عقل السنين و"ناصر" جاء كصرخة جنين لأب
حُرم من الخلفة لمئات السنين.

(٢٩)

خرج والدي من المستشفى بعد إجراء عملية دوالي في الساق اليسرى، واتفق مع عمي "الأمين" على الذهاب، ومشاهدة الفيلم في إحدى دور العرض بوسط البلد.
حفلة الساعة الواحدة والنصف ظهرًا كانت تُسجل أعلى الحضور في الستينيات والسبعينات.
عبرنا محطة الإسعاف، واتجه "الأمين" ناحية دار القضاء العالي ليركن سيارته، وإذا بحشد من الناس يلتفون حول جثمان مغطى بأوراق الجرائد الملطخة بالدماء.

ما إن رفع والدي الجريدة التي تخفي وجه الرجل المسجّى على الأرض حتى صرخت "قدرية":
"جدي، جدي، جدي!".
يا إلهي... العجوز الذي لا يسير خطوتين في شوارع الزمالك مُلقى على الأرض غارق في دمائه، ثلاث سيارات تقبع في جراج العمارة، يصعد السائق كل صباح ليسأله أي السيارات تكون في انتظاره أمام باب العمارة.

في سيارة تاكسي تابعنا العم "أمين" وهو يعود بسيارته وبجواره جرسون من محل "الآمريكين"، وعلى الكرسي الخلفي جثمان الجد الفقيد، جلس "فاروق" بجوار سائق التاكسي يخبط كفًّا على كف، بينما انكمشت ابنة الاثنتي عشرة سنة في حضن والدي تبكي وترتعد من منظر الدماء التي رأتها لأول مرة.

(٣٠)

رفعت النظارة الطبية من على عينيها وابتسمت، ومن بين دمعة احتفظت بها السنوات لهذه اللحظة رأيت "قدرية"من وراء باب شقتهم، تنظر في العين السحرية وتصرخ: " لأ... لأ... مش حرامي.. ده أحمد يا تيتة... أرجوكي افتحي لي... حيقتلوه".

...

"حاصروني في غرفتي... ألقوا بلوحاتي التي تحمل كثيرًا من قسماتك إلى غرفة الكرار.

مزقت شهادة الجامعة عندما تسللت من تحت عقب الباب.

أحضروا لي طبيبًا نفسيًّا... أخذت أصرخ فيه وفي والدي..

امسحوا أحذيتكم من الدم قبل أن تدخلوا عليّ الغرفة!

أنتم قتلة... قتلة".

وخرجت من محبسي لأستكمل سنوات العقوبة في "أستراليا"

نعم أستراليا... القارة الجزيرة التي كانت بكل شوارعها ومدنها وصوت تلاطم أمواج المحيط على شواطئها أضيق في نظري من حجم الزمالك!!

السجن المفتوح الذي استقبل المجرمين الإنجليز. أسواره

غير المرئية كانت تقبض على ضلوعي.

ثلاثة أشهر و"سامي" يحاول اغتصابي بوثيقة لا تحمل توقيعي وبنعم لم أتلفظ بها!!

شرطة المدينة ضجّت من شكاوى الجيران من صراخي،
بكائي يوم علمت أني حامل.. جعل طبيب المستشفي يستدعي زوجي، يومها أرغموني على توقيع تعهد بالحفاظ على الجنين.

القانون الذي ينتظر اغتيال صاحبه يضع العدالة على منصة الإعدام.

* * *

هاتفتني "ملك"
المحامي حصل على البراءة من تهمة الانتفاضة، سألتها عنك وعن السنوات الأربع التي قضيتها في "السودان"
ما زلت أذكر ملامح وجهك على رصيف المحطة...
طعم الدموع التي بللت شفاهنا.
صدمة الوجوه السمراء التي فوجئت بجرأة الفتاة البيضاء،
وهي تتشبث بشباك القطار وتبكي...

الفراق كان أصعب اتفاق لم نخطط له، نامت مذكراتي بهذه الجملة تحت وسائدي المبتلة هربًا من سخرية أبو بنتي،
كنتُ أنام بجوار رقيب ولا أتقلب ناحية مقصه.

(٣١)

لصوص الانفتاح بأسُهُم شديد بينهُم.
قفزت أصابعهم في كل طبق، جالت أعينهُم في كل حاوية. كسروا أقفال شقق المهاجرين، وزوَّروا عقود بيع بتوقيعات لأموات منذ سنين.

فرح "سامي طابات" بصداقتهم، انهالت الأوراق الرسمية ممهورة بالتوقيعات الحكومية، انتشرت الفروع في أنحاء الجمهورية، والإعلانات احتلت الشاشة وقت الذروة.
مفتشو الصحة وموظفو الأحياء المسؤولين عن إشغالات الطرق لا يستطيعون الاقتراب من حرم الآنسة "ويمبي"، يقتات الفساد على الروتين.. متاهة يبتكرها ويمنح تلاميذه مفاتيح الحل والربط ليظهروا في غياهب المتاهة يحملون فانوس الحقيقة ويدلّون المستثمرين إلى شط النجاة.
من يدفع صعدوا به السلم إلى أعلى، ومن يمتنع سلّطوا عليه ثُعبان المخالفات وأطاحوا به إلى بداية الرقعة.
لم ينجح الزعيم " ناصر" في القضاء علي كل الثعابين، الأذكياء منهم لجؤوا إلى بيات شتوي طويل، أظهروا الطاعة والانصياع إلى أوامر الشعب حتى رحل "ناصر"، فأصبحت الشرطة فى خدمة القانون والقانون في خدمة الشعب!! شعب الزمالك فقط!! الذي يعرف صُنّاع القانون وبهلوانات تنفيذه.

عاد الإقطاع مرة ثانية بنكهة محلية يتمتم بالشكر لكبير العائلة المصرية ويوقع عقود شراكة مع أفراد عائلته.
وكأن الزمان الذي ولّى عاد مرة ثانية، هذه المرة يركب سيارة مرسيدس أحدث موديل، وسائق يرتدي بدلة كاكية تشبه بدلة البكباشي "جمال" ينحني بإجلال وهو يفتح باب السيارة للهانم "فوقية قنديل".

اليوم افتتاح مطعم الحفيد بحي منشية البكري، في الشارع الذي يتوسط منزل الزعيم الراحل وقبره وفي مكان لا تخطئه
عيون أبنائه، مكان تستطيع رائحة البورجر أن تصل إلى المسجد وتسمم أنفاس ذلك الاشتراكي الذي حلم بإبرة وصاروخ مصنوعين بأيادٍ مصرية.

عاد أخي "فاروق" ليحكي عن كاميرات التلفزيون وفلاشات التصوير ومراسلي الصحف والمجلات الذين غطّوا الحدث.
عن شكل الخبز وطعم اللحم البقري والمايونيز وصلصة الطماطم المسماة بالكاتشب، وأخرج من جيبه عدة أكياس صغيرة فتح إحداها ليفوح عطر جميل نائم في منديل ورقي.

حكى عن أضواء وموسيقى وربطات عنق زاهية الألوان وسيارات فارهة، وعن رعب كان يسكن عيون "فوقية قنديل" عندما رأت أفرادًا من عائلة الرئيس المؤمن، وهم يستقبلون الضيوف بجوار حفيدها.

(٣٢)

"الزمن الجميل"

ساذج من تنطلّي عليه خديعة هذه العبارة الرقيقة، خبأت النيران تحت أكوام الرماد منتظرة صافرة الثورة المضادة، لم يكن زمنًا جميلًا في نظر الشراكسة وأبناء المماليك وأحفاد الوصيفات والشماشرجية،

كيف لضابط في سلاح الفرسان يرتدي بدلة يلمع النحاس فوق أكتافها، ويردد الإسفلت الأسود وقع حوافر حصانه الرشيق أن يتقبل وجود نسله بجوار أبناء البوابين يشاركونهم مقاعد الدراسة والحقوق والواجبات!!

صمتوا كمدًا طيلة الـ ١٨ عامًا من شهقة السماء التي منحها الرب لكنانته، واثقين بأن بعضًا من أبناء هذا الشعب ملولون وسريعو النسيان.

ويشهد التاريخ أنهم كثيرًا ما خذلوا الشرفاء من أبناء الشعب.

هرب مواليد الخمسينيات من مقولة إن "الطبع يغلب التطبع"، فالزعيم "جمال" صبغ الحياة بألوان الاشتراكية والوحدة والعمل والنظام فكان تأثير الشارع أقوى من تأثير البيوت.

(٣٣)

سكنت "إيزيس" عقلي ووجداني، جمعت كل قطعة منك في ذاكرتي خبأتك تحت جلدي لأحافظ على سلامة عقلي ولأقوّي بك ساعدي، وأشد ظهري في غربة فُرضت قسرًا.
زدتُ عن إيزيس أرجاء السودان، أرهقتني كتب الآثار والطلوع للنهار أبحثُ عن تميمة تردُّ الروح فيك من فرط دموعي!

كل خطوة تعدو أتمناها حبيبي، كل قطة داست على السلم الحديدي
أتسمعها حبيبي، بينما ظلت روح "ست" ترفرف فوق سماء العائلة الشركسية، كنت أحمل لقبهم ولا أحمل قلبهم.
...
ظن المُعزون أن دموعي تبكي والد ابنتي! كيف يعلمون ونحن نُغيّر عناوين إقاماتنا كل عام على الأكثر، نهرب من دائنين ومحققين، نهرب حيث توجد طاولة قمار أو صفقة مشبوهة تحتاج لتوقيع مشبوه.

في ليلة أعلن فيها التلفزيون أن "استراليا" سترى العام الجديد قبل كل سكان الكرة الأرضية، قررت ترك كل شيء خلفي والعودة إلى الجزيرة الصغيرة، العودة الى الشوارع التي أسمع فيها وقع خطواتي
وإلى عيون أرى فيها أيام طفولتي وأفراحي ما قبل "طابات" وكابوسه.

اليوم الحقيقي الذي بكيت فيه، يوم ضبطت نفسي تكره "جمال عبد الناصر"! إيراد العمارة ضئيل، وشكل الحياة تغيّر كثيرًا عن يوم مغادرتي، ابنتي في مقابلة عمل، و"ملك" صديقة عمري حبستها عني جبيرة طبية. جاءت قرارات "ناصر" في صالح السُكّان، تخفيض الإيجارات أكثر من مرة أغضب المُلاك، صارت العقارات ملك السكان بموجب عقود الاستئجار القديمة، بينما الأبناء والورثة يتسوّلون الستر.

وكأنني اقترفتُ ذنبًا، أسخر من يوم بكائي على رحيل "ناصر"! يومها أخذت أدور وأتلفت حول نفسي! وكأنني أخشى أن تلمحني لوحة تركتُ بين ألوانها بعضًا من ملامحك.

ظللت أنتفض مرعوبة وكأنني ضحكتُ في عزاء أو بلغتُ شهوتي في صلاة! وأريتُ دموعي تراب الخجل، وهرعتُ صاعدة إلى شقة جدتي، أبحث بين الأرفف المتربة وحقائب السفر المحزومة على النسيان، عن صورة له أخفيتها وراء تجاليد كتاب "ناصر" للكاتب السوفيتي "أجاريشيف". تذكرتُ أنني أخفيته في آخر مكان يظن والدي أنه هناك!غرفة مكتبه بالدور الأرضي، المكتب الذي شهد جلسات نميمة

باشوات العهد الملكي على ابن البوسطجي وأنخاب ليلة النكسة.

بحثتُ عن آلة حادة كي أفصل حشية ظهر المقعد الكبير التي يقبع خلفها الكتاب!

بين ألم كسر ظفر سبابتي وابتسامتي التي أهديتها لنفسي مكافأة، احتضنت الصورة ودموعي تمسح عني غضبي منه ومن نفسي. غُبار المكتب هيّج صدري المتعب، وأمام حوض الغسيل أيقظت وجهي النائم في المرآة منذ سنين. وحشتيني يا قدرية! ياترى لسّه فاكراني ؟!

جئتُ أبحث عن صورة لأعتذر لها فوجدتُ حلًّا لكل أسباب غضبي.

شقتان واسعتان وفراش فاخر، لوحات زيتية وتحف ثمينة وكتب تحمل تاريخ العقد الأول من القرن قبل الماضي، ثلاث سيارات تعاني إطاراتها من ضيق التنفس.

غرفة مكتب بصالون كبير تطُل على الشارع العمومي،غنائم يتمناها عصر المماليك الجوية وتصلح لبداية جيدة.

(٣٣)

جاء العبور وكأنه صافرة بدء الهجوم، آخر الحروب وأول السلام.. وإعادة توزيع أوراق اللعبة السياسية في الشرق الأوسط.

بورسعيد الباسلة أصبحت بورسعيد المستوردة، و"فاروق" المقاتل أصبح يتاجر في العملة في وضح النهار...

...

"شوكت سري" اعترض على اختيار ابنته نفس كلية ابن البوّاب، وفي ليلة حارة أمر "صالح إدريس" برفع المقعد الخشبي من جوار مدخل العمارة!!

وثاني أيام الانتفاضة وافق على فكرة "سامي" الجهنمية بإطلاق النار على ساقي؛ لأن من يحتج على غلاء الأسعار هم الرعاع والحرامية وأبناء "ناصر".

(٣٤)

الذين كانوا على الرصيف المقابل لمحل الآمريكين أثارهم الفضول، رجلان بسمرة داكنة يرفعان جثمان رجل أبيض عجوز فارق الحياة منذ دقائق!!

حاول البعض التدخل وإبداء الرأي، صاح أحدهم: "من الأفضل انتظار سيارة الإسعاف"، وتساءل آخر عن العلاقة بين هؤلاء والرجل الأبيض!! ربّت الجرسون على كتف الأمين، وصاح في الجمع: "الأفضل لسري باشا أن يخرج من منزله بالزمالك... إكرام الميت دفنه.. وسيارة الإسعاف لا تتعامل مع الموتى".

عندما اقتادوني إلى المطار كذبيحة يوم أضحى... رأيت الدماء تصرخ فوق بلاطات السلالم تكتب نهاية زمن جميل.

بلا وزنٍ جلستُ على مقعد الطائرة، أُطالع صحراء النهار من خلف دموعي حين أعلنوا عن ربط أحزمة المقاعد، زاغت عيناى يائسةً من ضياع فرصة الهروب بروحي. قبضت كفتاي على جانبي المقعد حين تسرب غاز الإعدام من سماعات المذياع الداخلي: "أهلًا بكم على متن خطوط الطيران. الرحلة تستغرق... درجات الحرارة في مدينة سيدني.. العظمى... الصغرى....."

فاض النهر من ينبوعه الأزرق وطغى اللون النيلي على مرود الكحل الأسمر، فشمرتُ جلبابي، وهرعت أسدُّ كسر الخليج. دموعها أغرقت فدادين عمري، وضاع معها محصول أحقادي، وكل ما قرأته بعد الحادث عن الصراع الطبقي، كلما سددتُ فتحة في الجسر، انفجرت في الجسد عيون. صرتُ أقطع من مناديل كفّي خطوطًا لأمسح بها فيض دموعها. سامحيني لم أكن تعلمت القتال وقتذاك، انسحبت لأوثر السلامة لا تلوميني فلست أول المنسحبين.

صدرت عن القصر صيحة فرح وقفز الشباب من فوق درجات السلم حاملين أخبارًا سعيدة، انضم اليهم كل من كان تحت عمارة "ليبون"، وقطع الباقون أسفلت شارع الكورنيش، زغاريد وأحضان! ارتكنت "قدرية" على صدري وذراعي توسّد حجرها لينام. بحثت بأصابعها عن تفاحة كانت تلتقمها بالأمس، فوجدت رقبة سمراء مغموسة في كوب حليب.

(٣٥)

عندما يشيرُ الأسواني برأسه ناحية اليسار فهو يعني درب الأربعين، بينما يُمناه على طول مداها تلمس شاطىء البحر الأحمر بصحبة قوافل البشارية والعبابدة.

أهل "أسوان" يتحدثون ووجههم شطر القاهرة والسودان (ضهر وسند)، أسمر حلقة وصل بين شقّي وادي النيل، كانت الأغنية تقول:

يا بهية وخبريني ع ... اللي قتل ياسين

قتلوه السودانية يا عين ... من فوق ضهر الهجين.

ولأنهم يعلمون أن ما حدث في معركة "شيكان" لم يكن مقصودًا به إخوانهم المصريون، بل البيت العلوي والمرتزقة الإنجليز، راح "هيكس" ومعه خيرة رجال مصر في معركة كانت أشبه بكمين! وصارت الأغنية تقول:

قتلوه السود عينيّا يابوي

وصار الهجين محملًا وهودجًا يتمخطر حاملًا الحب الباقي

بين أبناء النيل.

(٣٦)

كنت شاردًا...
سائق التاكسي سألني: "السيل الجديد، ولا بيت مين في القديم؟".
سمعت السؤال وأنا أمام أبي يحمل كيسًا من القماش كنت حصلت عليه من معرض القاهرة الدولي دعاية لإحدى الشركات:
"نزلني هنا.. أنا لا أعرف قديمًا ولا جديدًا!".
فقط هذا الرجل، وجلبابه، وعمّته ورائحة جسده التي أرشدتني يوم الرجوع.

سامحني يا والدي على ما سببته لك من ألم، ما حلمت به كان ضربًا من الوهم، طلاء الاشتراكية التي لوثت به أصابعي أنساني لون الحياة الحقيقي.

الديمقراطية ليست تداول السلطة، بل هي زيت المحرك الذي يرطب أجزاءها المعدنية الخرساء، ويمنعها من الاحتكاك بين الطبقات، بلل ريق ليس أكثر.
شهادة ميلادي الصادرة عن سجل مدني الزمالك، كان راتبك الشهري يُدفع نظير التأكد من شخصية حاملها، بشرتي السمراء كانت الداعي لتطفل عساكر الحراسة وسؤالهم عن هويتي الشخصية...

لم يفعلوها مرة واحدة مع رفيقتي في الطريق!!
تنفض المظاهرات ويترجل قادتها من فوق أكتاف زملائهم
ويطالبني حرس الجامعة بإثبات أين كُنت وقت المظاهرة؟!

ينتفض الشعب ثائرًا لحقوقه... يهتفون... يحطمون... يهربون ويتركون لك (أنت)، أنت ومن دون الناس سلالم مضرجة بدماء ابنك ويطالبونك بمسحها.

سامحني وسأعاهدك لن أنسى المسافة بين المقعد الخشبي أمام العمارة والسطوح، وأن الطريق بينهما يمر من خلال سلم الخدم، وليس عبر أهداف الثورة الستة وأحلام "ناصر" الوردية.

(٣٧)

اللصوص يستحلون أموال اللصوص... ينتهكون بعضهم أعراض بعض.
يحرقون درجات السلالم التي ارتقوها، يطعنون في أحضان باردة شركاء الأمس وضحايا المرحلة، ينتزعون المبايعة فوق رأس القتيل ويطالبون بدمه!
وعلى باب السرادق وقفوا يستقبلون العزاء في ثروة "سامي طابات"! وعيونهم تلمع بدموع التماسيح بينما الشيخ يتلو: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار}

البريد الإلكتروني يصرخ في وجه "سامي".. الشركة الأم تطالب بمستحقاتها المتأخرة، وكالة الإعلانات أرسلت محاميها القانوني لمكتب وكيل النيابة.. الضرائب.. التأمينات... الموردين.. مكاتب العمل.

جهنم فتحت أبوابها علي مصراعيها في وقت واحد، البنك في لندن يخطره بالحجز على حسابه الشخصي، وفي المطار يتم القبض عليه وبحوزته مصاغ جدته، ويتم التنازل لصالح وزارة المالية مقابل إنهاء الأمر بعيدًا عن المحاكم.

الطريق الذي انتظرته "فوقية هانم" ليعبُر فوق أراضيها الزراعية تم تحويله إلى زمام آخر، واقتطعت الحكومة عدة أفدنة لإنشاء مركز للبحوث الزراعية ونقطة شرطة، وجاء التعويض هزيلًا.

رحل العام ١٩٧٨ وترك ميزانية تنزف بالسالب على آل "طابات".. ثمن الأرض البخس ترنح وهو يسدد ديون الحفيد.

غمغمت الجدة بكلمات غير مفهومة وزوج ابنتها يدفع كرسيها ذا العجلات في صالة السفر بمطار القاهرة.

"السادة الركاب المغادرون على متن طائرة شركة الخطوط الأسترالية برجاء التوجه إلى صالة السفر رقم ٢".

(٣٨)

هل تصدقينني لو قلت لك:
كنت في ميدان التحرير بدافعٍ لو علِمه من حولي لنعتوني بالفلول!

كنت من المستفيدين من عصر مبارك وفساد رجال مبارك، أجوب العالم لأشتري من أسواق الكانتو والروبابيكيا تحفًا وقطع أثاث قديمة وتدخل مصر دون جمرك بصحبة موظفي السفارات والبعثات الدبلوماسية.

تجارة درَّت علينا أموالاً طائلة.. امتلك "فاروق" عدة جاليريهات في الزمالك ومصر الجديدة.. كانت غطاءً قانونيًّا لتجارة العملة، ونحر اقتصاد البلد التي تربينا على خيرها.

أثثنا مئات من فيلات التجمع الخامس والقطامية ومنتجعات مدينة السادس من أكتوبر، تخصصت أنا في تزويد الفنادق بنسخ التماثيل المقلدة، واللوحات المزورة، أضعنا على خزانة الدولة أموالاً كانت تكفي لإيواء كل أطفال الشوارع..

أفاق "فاروق" من دوامة الحياة على فاجعة فقدان ابنه الأكبر بمرض فقر الدم!!
الفقر الذي هربنا منه.. وظن "فاروق" يوم أن استعان البنك المركزي بالعم "دهب" و"سامي علي حسن" لسد حاجته من الدولار الأمريكي أن الدنيا قد دانت لنا وتساوت الرؤوس.
منزل العائلة بأسوان أصبح ثمانية أدوار واستأجر والدي حارسًا أسكنه سطوح العمارة.. أي فقر هذا الذي لا ينسى أصدقاءه القدامى!!
عاد "فاروق "بعد دفن ابنه الأكبر وافترش مدخل الفيلا التي بناها على النيل في الوراق..

أخرج كل ما في جيوب جلبابه.. نقودًا وكروت ائتمان وكارنيهات عضوية نادي الزمالك والأهلي ونثرها في الهواء.. كلما عادت لحجره.. ألقى بها ثانية، وهو يبكي ويخاطب السماء... خذها.. بادلني بيها.. عايز أشوف ابني مرة تانية.. أوعدك حتغيّر، سامحني ما كنتش أعرف إنك ما بتنساش.

رحيل الأحباب فراق جسد.
يأتيك الخبر عبر تلغراف أو رسالة على الهاتف، وربما مع شخص عائد من بعيد قابلته صدفة على الطريق.
يقولون الحي أبقى، والحقيقة أن الحي هو حائط مبكى يمشي على الطريق.

رفض "فاروق" أن يأتي لصِوان العزاء، صرخ في بناته وزوجته:
"مش عاوز أشوف حد، مين حييجي يعزيني غير اللصوص والفاسدين.. كل معارفي فاسدين، تجار عملة ومديرين بنوك وضباط شرطة ومستوردين.. كلهم لصوص".

* * *

كان محقًّا في ما قال.. وقفت أستقبل المعزين بوجه باهت ويد متخشبة.. ما إن ينتهي المقرئ من التلاوة حتى يهرع الموجودون ناظرين في شاشات هواتفهم المحمولة متحججين بموعد هام أو ضيف في طريقه للمطار.
الزمن الوضيع سريع الإيقاع.. أهله معدومو الإحساس يقتلون بدم بارد ويأكل بعضهم جيف بعض، ويستحقون اللعنة التي أصابت كثيرًا من رجال الأعمال في السنوات العشر الأخيرة من حكم مبارك.

وفاة الابن البكري لكثير من الأسماء وفشل زيجات بناتهم، وحوادث القتل والاغتصاب التي اقترفها الأحفاد المدللين، وألصقوها بشباب فقراء بمساعدة محاميّ الشيطان.

عطن، يلاحقني أينما ذهبت ويفوح من ملابس كل من تعاملت معه، ظللت هائمًا على وجهي، هاربًا من تلك الرائحة، مسافرًا من مدينة لأخرى، أشترى كل شيء وأبيع كل شيء.
كانت بطون الطائرات تلفظني على أرضية المطارات.. أختار الليل للعودة والسفر هاربًا من نور النهار.. ومنظر النيل حتى لا أراه، يقترب من الزمالك... يُقبّل شواطئ الجزيرة وأنا لا أستطيع.

أكثر من ثلاثين عامًا يا قدرية وأبناء البواب يظنون أنهم أصبحوا أسيادًا!! والحقيقة أن السيد الفاسد لا يستطيع الهروب من عبودية سيد آخر فاسد.

* * *

عندما عُدت من السودان مع قوافل الجمال عن طريق درب الأربعين.. افتقدت حضن أمي وكوب الشاي باللبن.. كم كان شاقًا عليها أن تعلم أن ابنها يختبئ في الجبال، ولا تستطيع رؤيته..
أربع سنوات ظلت تسأل قريبها "عبد الله الطويل" تاجر الجمال: "هل عاد ابني معك؟!!".

كنت أعالج شروخ روحي بدفء الميدان.. أعود شابًا مع الحواديت وأغاني الشيخ "إمام"..
آلاف الشباب يأتون من ناحية كوبري
قصر النيل.. يصرخون، يتألمون من جرح ما!

يا إلهي كم طلقة رصاص ما زالت في بندقية "سامي طابات" تحاملت على ساقي وسرت أطالع صفحة النهر.. كنت أخشى برودة الكوبري الحديد الذي شهد شتاء خياباتي الاشتراكية..

نظرت إلى اليمين البعيد... لم يعد هناك!! هرب الكوبري المعدني بأعمدته التي صارت تشبه التجاعيد ومساميره المغطاة بصديد أخضر، هرب يحمل بصمات أقدام أبي وبعضًا من دماء ساقي العرجاء، وبطولة الكونستابل الشجاع، وذكرى قبلات تمت في ظل عروقه.
تقاعد مبكرًا وفضّل الانزواء بعد أن هزمه خصم إسمنتي.

* * *

وطنية سكان "الزمالك" أساسها الوعي، والإدراك بأن الأمور لا تسير على نحو مناسب، معاييرهم تتعدى مرحلة الأكل والشرب.
وعي المواطن الذي يعلم بواطن الأشياء، من سافر وقارن وحلم بوطن يشبه تلك الأوطان التي درس بها وساح بين جنباتها، أو جاء منها جاره الأجنبي.

عندما يغضب أهل الجزيرة يجتمعون.. يتناقشون.. يختلفون، ثم يصلون إلى قرار لا يُرضي بالضرورة كل الأطراف، لكنه صادر عن الأغلبية، لا صراخ.. لا مظاهرات وحرق مرافق عامة أو ترويع آمنين، الثورة في قاموسهم تعني إبداء الرأى والمعارضة حق من حقوق دافعي الضرائب، لا يعترفون بالمقولة الكريهة: "ادفع ثم اشتكِ"!
الوطنية عندهم مبدأ ليبرالي أصيل وليست دور برد طارئ.

(٣٩)

صحوت من نومي فزعًا على صوت طرقات ثقيلة على باب الشقة، على يساري ترقد جثة لا أتذكر متى وكيف وصلت هنا!!
ألقيت على ساقيها ملاءة السرير ونهضت.

عشرات القطع التي زينت فيلات الرئيس وأبنائه عادت إليّ مسروقة من شرم الشيخ، عادت ومعها وجوه الذين حملوها أول مرة هدية لأسيادهم.. لكن هذه المرة يطالبون بثمنها!!

عشرات السكاكين جاءت تنهش في لحم البقرة الحلوب ومن بيت أبيهم التقم كل ضبع حجرًا.

(٤٠)

على جرف النهر المهجور رأيته، كان راقدًا يستند إلى عمود باهت اللون، عجوز يعاني من خشونة المفاصل.....

لم يتذكرني!!

حكيت له عن والدي الذي طالما ربّت على كتفيه.

وتمتم بأغاني النميم ونعناع الجنينة.. أشاح بوجهه عني..

قال وهو يغلق باب كابينته العتيقة:

"أحمد صالح الذي أعرفه كان طفلًا يعشق الحياة..

كان يمسح قطرات الندى من على جبيني يحسبها حبّات عرق..

كم كانت تؤنسني همهماته وهو يغني..... ابتعد.. أنا لا أعرفك،

صوت أقدامك الثقيلة يزعجني.

رائحة الجثمان الذي ترتديه تخنقني.... ابتعد، فالخواء الذي يسكن عينيك يصيبني بالرعب.. ابتعد..

أنت لا تشبه أحدًا أعرفه!".

(٤١)

الجديد في الفرح أحلى من اللي فات
والجديد في الجرح أهون من القديم

مع بحّة صوت نجاة وهي تتغنى بكلمات مأمون..أخذتُ أهز في رأسي، هل مرّ "مأمون" بمثل عذابي؟ هل عانى؟ هل بكى؟ من أين له كل هذا الصدق؟

كلمني عن بكرة وابعد عن امبارح
بخاف من الذكرى وسهمها الجارح

بإيماءة من رأس "قدرية" ودمعة غافلتني وفرّت من عيني
ظللنا نردد كلمات الأغنية مع هاتفها الجوّال..
على درجات السلم الرخامي عاودني الألم... استندت على كتفها، وصعدنا في صمت منتصف الليل إلى ما تبقى لها من ميراث العائلة، وضعت المفتاح في باب شقة الجدة، بينما أكملت طريقي إلى سلم الخدم حتى وصلت للسطوح.. افتقدت منظر النيل من هذه البقعة!

(٤٢)

في صمت الصحراء الأبكم يسمع الرفاق نهنهة البكاء المكتوم، يجذب البشاري مقود جمله ويبطئ من خطواته حتى يحاذيني، وكجالسين في حلقة ذكر، تميدُ بنا ظهور الجمال في بحر أصفر جاف المشاعر،

يصرخ فيّ قائلًا:

هوّن عليك يا تكروني.... عسى الله أن يبدلك بعد الحال حالًا

نسلك هذا الدرب منذ آلاف السنين.. لا يرافقنا فيه سوى ظالم أو مظلوم!!

أربع سنوات منذ عبرت فضاء "بربر" إلى " شندي" وأوراق القضية تتسوّل بين أروقة المحاكم براءة هارب!

كل الأوراق تحمل اسمي ثلاثيًا، وإفادات المجني عليهم تستشهد بدمائي الجافة علي درجات السلم!!

السلاح يحمل ترخيصًا ساري المفعول، وعائلة الجاني غادرت المدينة خوفًا من الفضيحة.

إطلاق النار تم للدفاع عن النفس.

الجاني: طالب في الجامعة!!

المسروقات: تلفزيون وقطع مصاغ ومبلغ من المال.

الشهود: صاحب الشقة وخطيب ابنته وبعض أفراد العائلتين!
الجاني: ابن بواب العمارة التي وقعت فيها محاولة السرقة.
سايس الجراج يقول إنه ترك غسيل السيارات وهرع لمعرفة
مصدر إطلاق الرصاص، التحريات تقول إن ابنة العائلة، صاحبة الشكوى، زميلة دراسة للجاني، ولكن لم نتمكن من سؤالها لوجودها بعزبة والدها!!
كل الدلائل تشير إلى أنها مظاهرات تخريب استغلها اللصوص؛ لتشويه وجه النظام، أو بصياغة أخرى مظاهرات افتعلها اللصوص ليتم تصنيفها "انتفاضة".

فكيف يجرؤ المستشار "حكيم منير صليب" ويصدر أحكامًا بالبراءة؟!

(٤٢)

الليالى يتيمة الريح تُصيب النهر بالخرس...
ترقد جثة ترعب أعين الأطفال، النهر الصامت ليس ودودًا..
الصمت عتمة... العتمة ليست ودودة.
أطباق الدش المنتشرة فوق السطح تلتقط ما يدور في الفضاء، وتمدُّ ألسنتها البيضاء الهزيلة نحو آذان الجالسين أمام الشاشات.
صمت بارد في عتمة الليل لكنه يزوم متأففًا من حرارة الجو.
يونيو الحزين دومًا ينفث أنفاسه زهقًا من ذكرى السنوية الأولى لحكم الإخوان.
يا إلهي.. عام ثقيل مرّ بلا ابتسام...!!

هل تخيّل والدي يومًا أن هؤلاء الخونة سيجلسون على عرش مصر!!!
هل خطر على بال الأمين عبد الله أن بيت الثعابين سيضع بيض ثعابينه في قصر الاتحادية!!
نظرات المصريين الزائغة كانت تنكر هذا الخاطر..
طرقعات الأكف كانت تستنكر هذا الوضع!!
أمام مبنى الوزارة كانت البراكين تتجمع حُبلى بحمم الرفض والتمرد...
وهنا على السطوح الذي شهد أيامنا الخضراء.. تطل من السماء نجوم عادت تلمع من جديد، هناك على بُعد خطوات... أيام تبدو جميلة.

(٤٤)

أشفقتُ على سُعال الرجل العجوز الذي يشبه والدي، يأتي صوته من غرفتنا القديمة، ينام على صوت إذاعة القرآن الكريم، كما كان يفعل والدي وأخي "فاروق" قبل رحيلهما.

أضاءت شاشة هاتفي الصامت باسم "قدرية"، فخطوت ناحية السلم الحديدي ملوِّحًا للجزيرة، هبطت أسترق السمع خلف النوافذ المغلقة... لا موسيقى ولا بداية للوحات جديدة ولا خصلات يطيرها الهواء الساخن.

فقط، نشرات أخبار جافة وحوارات جوفاء، وصوت غطيط، خطواتي الثقيلة على السلم الحديدي صار لها صوت يشبه ضربات مجاديف مراكب الصيد وهي تتجه ناحية روض الفرج. هبطت السلالم على ضوء باب مفتوح وصوت صافرة براد شاي وملعقة تتحرش بجدار كوب زجاجي، ووجدت نفسي بين قطط صغيرة تلعقُ اللبن الذي وضعته "قدرية" في صحن أمامهم...

تمـــّت